الاعتدال الفكري

ودوره في معالجة جذور العنف والإرهاب

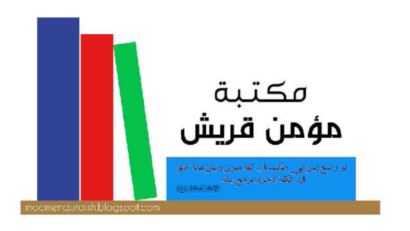
حيدر الموالي



المركز الإسلامي الثقافي

مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام


بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى

بيروت ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٥م



لبنان

حارة حريك ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

هاتف: ٠١/٥٥٧٠٠٠ ـ ٠١/٥٤٤٤٠٢ ـ خليوي: ٠٣/٥٦٥٠٧٤

العراق

* النجف الأشرف. قرب مسجد الحنانة 07812326490

* بغداد. العطيفية. مقابل جامع براثا 07706935065

* العمارة . حي الربيع . مقابل المشتل. 07702731980

* البصرة / الطويسة / مجاور مديرية شرطة البصرة
الفرع الثاني على اليمين بعد المديرية 07703125638

* ذي قار. شارع بغداد. قرب بناية الضريبة 07810163360

* الحلة. شارع 40 قرب فرع الخطوط الجوية العراقية 07832537327

البريد الإلكتروني
sayedfadlullah@gmail.com
info@fadlullahlibrary.com

Facebook:
SayyedFadlullah
مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة

المواقع الإلكترونية
المركز الإسلامي الثقافي

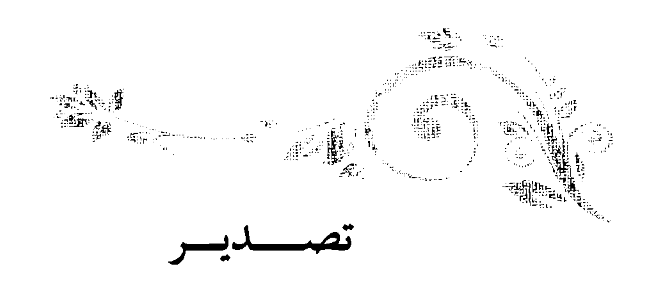
www.sayedfadlullah.org
www.fadlullahlibrary.com
youtube/sayyedfadlullah

الاعتدال الفكري

ودوره في معالجة جذور العنف والإرهاب

حيدر الموالي





تصــــديـــر

الاعتدال الفكري، هو المنهاج الإسلامي الأسلم في حركة الإنسان المسلم الرساليّة، وهو يدعو إلى الله تعالى، وليؤكّد على تلك الروح الإسلاميّة التي تفيض رحمةً وحناناً وحبّاً...

وبالتالي فإنَّ صورة الاعتدال، تعكس منهجيّة الوسطيّة بما هي أسلوب حضاري يعرف كيف يدخُل إلى العقول والقلوب بلغة قرآنيّة تهدف إلى تطهير الأسلوب الذي يجمع ولا يفرّق، يزرع المحبّة بدل الحقد، يرفع شعار الوحدة والأُلفة بدل الشِّقاق والفُرقة...



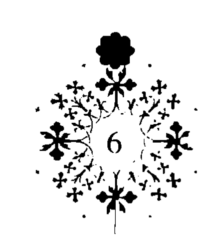
ولتبيان هذة النظرية الإسلامية في الاعتدال، قام الأخ الشيخ حيدر الموالي من العراق بإلقاء الضوء على هذه النظريّة شارحاً لها ومبيّناً خطورة التطرّف والتكفير على واقع الأمة بأسرها.

ونحن في المركز الإسلامي الثقافي في لبنان والعراق يسرُّنا أن ننشر هذا الكتاب إيماناً منا بضرورة استشعار المخاطر من الأفكار التي تتلطّى بالشعارات الإسلاميّة، وهي أبعد ما تكون عن الإسلام بمواقفها وممارساتها الشنيعة والحاقدة.

وفي الختام نسأل الله التوفيق للأخ الشيخ حيدر الموالي ولكلّ الدُّعاة في سبيل الله وهو نعم المولى ونعم النصير.

مدير المركز الإسلاميّ الثقافيّ
شفيق محمّد الموسوي

ربيع الأول ١٤٣٧ هـ
ك١ (ديسمبر) ٢٠١٥ م

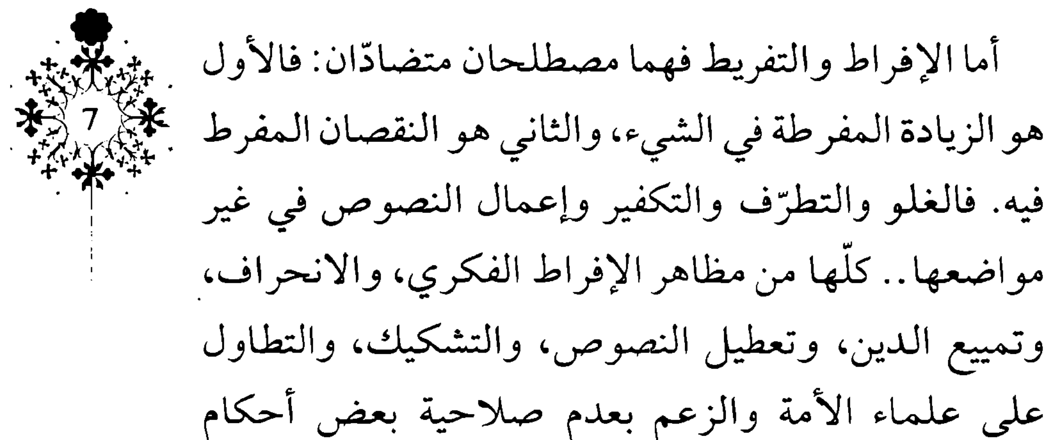






مقدّمة

الاعتدال والوسطيّة مصطلحان مترادفان إذا أُطلق أحدهما أُريد به الآخر، وهما من الأوصاف التي دعت إليها الشريعة الإسلامية، بل إنّ القرآن الكريم امتدح هذه الأمة ووصفها بالوسطيّة بين سائر الأمم. والاعتدال والوسطيّة هما المقياس الذي ينبغي على المسلم الالتزام به في علاقته بخالقه سبحانه وتعالى وعلاقته بالمخلوقين.



أما الإفراط والتفريط فهما مصطلحان متضادّان: فالأول هو الزيادة المفرطة في الشيء، والثاني هو النقصان المفرط فيه. فالغلو والتطرّف والتكفير وإعمال النصوص في غير مواضعها.. كلّها من مظاهر الإفراط الفكري، والانحراف، وتمييع الدين، وتعطيل النصوص، والتشكيك، والتطاول على علماء الأمة والزعم بعدم صلاحية بعض أحكام الشرع المطهّر للتطبيق في هذا الزمان.. كلّها من أهمّ مظاهر التفريط في الفكر والطرح والتوجّه.

إنّ من أهمّ التطبيقات العملية لمبدأ الاعتدال التمسّك بالثوابت، والرجوع والتحاكم إلى المراجع والمصادر (وعلى رأسها الكتاب والسُّنّة) وعدم التسرّع في الحكم على الأشخاص، وترك التنابز بالألقاب القادحة في الدين، وإظهار التسامح مع الغير، والقبول بالحوار مع الآخر. فالحوار هو العلامة الواضحة التي تميّز الفكر المعتدل، وهو العامل القويّ الذي يعمّق هذا الفكر ويؤصّله، خاصّةً إذا كان هذا الحوار بين أبناء مجتمع واحد يلتقون في كثيرٍ من الروابط كالدين واللغة والانتماء والمصير المشترك.

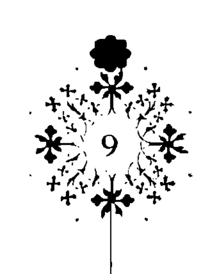
وإلا فإنّ العزوف عن الانفتاح على الآخر، وغياب الحوار بين القوى والأطراف المختلفة في مجتمعاتنا، يُعتبر مكمناً أساساً من مكامن الداء، ومظهراً صارخاً من من مظاهر التخلّف.

ولعلّ من الأسباب التي أوصلتنا إلى تكريس هذه الحالة المَرَضيّة بدلاً من استئصالها، هو التوجّه الديني في مجتمعاتنا الذي ينتهج في معظمه أسلوب الحدّية والتطرّف تجاه الآخر، على أساس أنه (فماذا بعد الحقّ إلا الضلال)، وأنّ فرقة واحدة هي الناجية والباقين في النار، استناداً على أحاديث بلغت من الكثرة في ذات هذا المحور، وصار (كلّ حزب بما لديهم فرحون)، ولا شكّ عندي أنّ هذه الروايات مهما بلغت من الكثرة فهي من

وضع الإسرائيليّات، فتجدون أنّ النّصارى هم حواريّو الله، واليهود هم شعب الله المختار، فجاء دور المسلمين ليزجّوا في مقدّساتهم مفاهيم التطرّف والأوحدية مع الله، بأنّه مهما تعدّدت الفرق فإنّ فرقة واحدة هي الناجية.

أما عن الأهداف والغايات التي يسعى الحوار إلى تحقيقها فإنّها تختلف باختلاف موضوعه وأطرافه، وهي تتدرّج من فهم الطرف الآخر ثم الوصول إلى التقريب بين وجهات النظر، ثم إيجاد بيئة سليمة للتعايش بين الأطراف، وأخيراً الانتهاء إلى قناعة ورأي مشترك بين جميع الأطراف حول موضوع الحوار، وهذا يعني أنَّ الهدف الذي يسعى الحوار إلى تحقيقه قد يقتصر على أحد هذه الأهداف أو بعضها.

وفي الحقيقة يدفع هذا النمط من التوجيه الديني إلى مقاطعة الآخر المخالف والمختلف، معاقبةً له على ضلاله، وإنكاراً لمُنْكَرِه، ولردعه عن بدعته، وللتحصين من تأثيراته المختلفة، والتزاماً بواجب البراءة من أعداء الله.



وعلى الصعيد الاجتماعي تتمايز التكتّلات والانتماءات إلى حدِّ القطيعة والتنافر، ويصبح التواصل مع الجهة الأخرى لوناً من الخيانة للجماعة، وانعدام الولاء، وميوعة الانتماء، لأنّ صديق العدوّ عدوّ!

وعلى المستوى السياسي، فالأمر أشدّ قتامة وتعقيداً

في ظلِّ حكومات الاستبداد التي تغذَّت ونمت على موائد التطرّف وعدم الاعتدال، حيث لا مجال للرأي الآخر، ولا فرصة للمعارضة، ولا قيمة لمن يخالف أو يعارض، حتى يتنزّل الحاكم من علياء هيبته للاستماع إليه والانفتاح عليه، وإنّما يتعامل معه كمجرم يستحقّ أقسى العقوبات لشقِّه عصا الطاعة. وأذكر بالمناسبةً ما نُقِل عن الحجّاج بن يوسف الثقفي، والذي عُرِف بهيمنته وجبروته، حيث وصلت له الأخبار إلى أنّ شرب الخمر أصبح متفشّياً في المدينة، وأشار عليه مستشاروه أن يقوم بإقامة الحدّ على شارب الخمر، وبما أنّ الحجاج نفسه كان من دعاة شرب الخمر نهاراً جهاراً، فكيف يكون ناهياً وهو لا يتناهى عن منكر يفعله، فأصدر «فتواه» المشهورة، أنه يُجلد شارب الخمر بثمانين جلدة، ويُجلد مَنْ آتى به مائة جلدة!

وأخيراً فإنّ الإفراط والتفريط هما سُوسَتان تنخران في جسد الفكر، وتقضيان عليه، أما الاعتدال والوسطيّة فهما اللّبنتان اللتان يُبنى عليهما ذلك الفكر ويُشيّد.

حيــدر المـوالـي

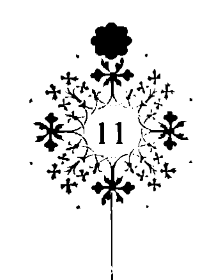
١٠ ذو الحجّة (أول أيام عيد الأضحى)

لعام ١٤٣٦ هـ - ٢٤ أيلول ٢٠١٥



الاعتدال والوسطية: سبيل الخروج من مآزقنا

إنّ شياع لغة العنف والتعصّب كلغةٍ وحيدة على الساحة، لمعالجة الكثير من المشكلات التي يمرّ بها الواقع العربي الإسلامي، يجعلنا نقف من هذه الظواهر: ـ التعصّب والعنف والتسقيط وعدم الاعتدال الفكري ـ موقف الباحث المتأمّل في أسبابها وطرق معالجتها وسُبُل الخروج منها أو تجاوزها.

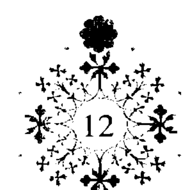


فقد شهد التأريخ الإسلامي في فتنته الكبرى أقصى أنواع الصراع المتعصّب حين رفعت فئةٌ القرآنَ على أسنّة السيوف وهي تزعم أنّها وحدها صاحبةُ الحقّ المطلق وما زالت هذه السيوف ـ ومن فِرق متعدّدة ـ بشكلٍ أو بآخر مشرعة حتى اليوم، إن لم يكن بالعنف الجسدي، فهو بالعنف الفكري الذي هو أعنف وأقسى.

لذا فإنّ عدم الاعتدال في الفكر كظاهرة فردية أو

مجتمعية هي تعبير عن خلل ما في فكر صانعها، دفعه هذا السياق الذي يعانيه نحو استخدام العنف، متوهّماً أنّ خيار العنف والقوّة سيوفّر له كلّ متطلّباته أو يحقّق له كلّ أهدافه.

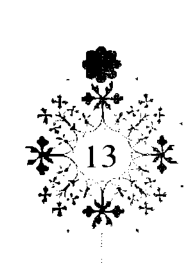
ولذا نجد أيضاً أنّ البداية السليمة لتجاوز خطر التعصّب هو تغليب روح التّسامح وإطلاق حرية التعبير عن الآراء والمعتقدات بعيداً عن التكفير والتسقيط حتى من أبناء الجلدة الواحدة. ولكنّ التسامح في حقيقة أمره صعب. فالنّفس البشرية التي جُبلت على الصّراع من أيام قابيل وهابيل من الصعب أن تسلّم به كحقيقة بديهية. فلا يمكن أن تكون متسامحاً وسط مجتمع لا يتسامح معك، بل ولا يُعير أهمّية للوسطيّة التي تدعو إليها، أو الاعتدال الفكري الذي نحن بصدد تبيانه هنا. فالمجتمع الإسلامي شهد وما زال يشهد صوراً من أسوأ أنواع اللاتسامح التي اقترنت بالعنف الدموي في كثيرٍ من الأحيان. والمشكلة أساساً لا تتمثّل في مشكلة المسلم في التسامح مع غيره، بقدر ما هي مشكلة أولاً وقبل كلّ شيء في التسامح مع نفسه ومع أبناء جِلْدَته ودينه. بل يبالغ البعض في التعصّب لآرائهم وما يؤمنون به ظنّاً منهم أنّ كلّ ما يوقنون به فهو كتاب منزَلٌ من الله تعالى عليه، لا سبيل للشكّ فيه! فباتوا يفرّطون في الثقة بما يؤمنون، بحيث لا يفسحون أيّ مجال وأيّة فرصة للرأي الآخر، فهم على الحقّ المطلق دائماً، وغيرهم على



الباطل في كلِّ شيء. وينتج عن هذه الحالة غالباً موقف التطرّف والحِدّة تُجاه المخالفين حتى في الاختلاف عند بعض القضايا الجزئية، والأمور البسيطة الجانبية. في حين أنّ المولى تبارك وتعالى امتدح أقواماً وخصّهم بذكره بأنّهم من عباده وهم الذين يستمعون إلى الرأي الآخر وينصتون ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

وأكثر من ذلك فإنّ النبيّ ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والذي لا يشكُّ أحدٌ في أحقّية دعوته بمقدار ذرّة واحدة، يخاطب المشركين بمنتهى التواضع والموضوعية قائلاً: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[سبأ: ٢٤].

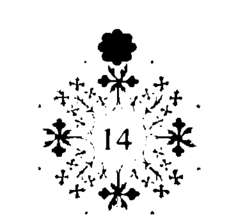
نعم.. إنّه منهج تربويّ، يصوغ شخصيّة الإنسان على أساس احترام الآخرين، وتحكيم العقل والوجدان. أمّا التعصّب المطلق للرأي، والحِدّة والتشنّج تُجاه آراء الآخرين، فإنّه يمنع الإنسان من الانفتاح على الرأي الآخر، والاستماع والاطّلاع عليه. بينما الاعتدال والوسطيّة هما المنهج السليم، فلا يكون الإنسان متطرّفاً ولا متشنّجاً ولا حادّاً في مواقفه مع الآخرين، وعلى هذا المعنى يحمل قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أحببْ حبيبك هونا ماً، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما**».



وقد دعا النبيّ الأعظم ﷺ إلى نبذ التعصّب فقال: «**ليس منّا مَنْ دعا إلى عصبيّة، وليس منّا مَنْ قاتل على العصبيّة، وليس منّا مَنْ مات على عصبيّة**». وهي دعوة صريحة إلى نبذ كلِّ أنواع العصبيّة. وورد العديد من الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام تؤكّد على تجنّب العداء والخصومة مع الآخرين على أساس الاختلاف في الدين والرأي، كما ورد عن صادق آل محمّد قوله: «**إياكم والخصومة في الدين**»، وورد في رواية أخرى: «**فلا تخاصموا الناس لدينكم فالمخاصمة ممرضة للقلب**».

ومن قبل فإنّ الحقّ تبارك وتعالى حكى ذلك في كتابه العظيم: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[الأنفال: ٤٦].



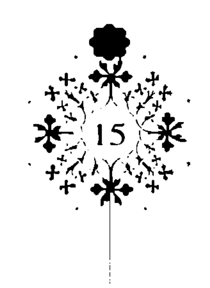




جذور التكفير

لست في معرض تقديم صورة زاهية وملوّنة للتأريخ الإسلامي، فالإسلام لا يحتاج إلى تقديمه بصورة جميلة فهو الديانة التي اكتمل بها الدين حينما قال الباري جلّ وعلا: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسلام دِينًا**﴾[المائدة:٣]. ورحم الله شيخنا الدكتور الشيخ أحمد الوائلي حينما أنشد أبياتاً في حقِّ أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها:

فلأنتَ أروعُ إذ تكونُ مجرّداً
ولـقـد يـضـرُّ بــرائــعٍ تثمينُ

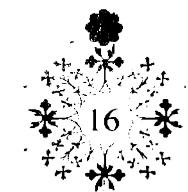


ولكن مع ذلك فأنا مدرك جيداً أنّ (ثقافة) جزّ الرقاب وقطع الأعناق ليست وليدة هذا العصر، بل إنّها تمتدّ إلى العصر الإسلامي الأوّل، وتحديداً مع نشوء فرقة الخوارج بعد معركة صفين، والتي يمكن اعتبارها أول حركة تكفيرية

ودموية عرفها التاريخ الإسلامي، الخوارج عاثوا في الأرض فساداً بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، لأنّهم حكموا بكفر أو شرك مرتكب الكبيرة من المسلمين، ووصلت بهم الجرأة إلى تكفير الإمام عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأنّه رفض «التوبة» عن قبول التحكيم، ممّا اعتبروه معصية كبيرة، مع أنّهم هم الذين دفعوه إلى قبول التحكيم، فكتبوا إليه رسالة في هذا الصدد جاء فيها:

(أمّا بعد فإنّك لم تغضب لربّك، إنّما غضبتَ لنفسك، فإنْ شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين)[1].

وعقيدتهم التكفيرية هذه جعلتهم يستبيحون الخوض في دماء المسلمين دون أدنى تورّع وتحت مظلّة شتّى الفتاوى، ولذا فالمتتبّع في تأريخ هؤلاء يجد صوراً مؤلمة في الواقع ومشاهد مروّعة، في الحقيقة حينما كنّا نقرأ عن تلك الأعمال الإجرامية التي ارتكبها الخوارج كنّا نُصاب بالصّدمة والذهول إلى أنْ دار بنا الزمان ورأينا ونرى بأمّ العين ما هو أفظع منها على يدِ خوارج العصر (داعش) ومَنْ لفَّ لفَّهم.



(١) العقل التفكيري، الشيخ حسين الخشن، ص١٠.

ومن تلك المشاهد المروّعة التي نقلها لنا المؤرّخون، أنّ خوارج البصرة التقوا أثناء مسيرهم إلى النهروان برجلٍ يسوق بامرأة على حمار، فعبروا إليه فدعوه فتهدّدوه وأفزعوه، وسألوه من أنت؟

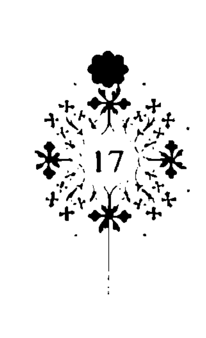
قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ؛ ثم أهوى إلى ثوبه ليتناوله من الأرض، وكان سقط عنه لمّا أفزعوه.

قالوا له: أفزعناك؟

قال: نعم.

قالوا له: لا روع عليك، فحدّثنا عن أبيك بحديثٍ سمعه من النبي ﷺ لعل الله ينفعنا به.

قال: حدّثني أبي عن رسول الله ﷺ: «**أنّ فتنة تكون، يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يمسي فيها مؤمناً ويصبح فيها كافراً، يبيع فيها أقوامٌ دينهم بِعَرَض من الدنيا قليل**».



فقالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر، فأثنى عليهما خيراً.

قالوا: ما تقول في عثمان في أوّل خلافته وآخرها؟

قال: إنّه كان محقّاً في أوّلها وفي آخرها.

قالوا: فما تقول في عليٍّ قبل التحكيم وبعده؟

قال: إنّه أعلم بالله منكم وأشدُّ توقّياً على دينه وأنفذ بصيرة.

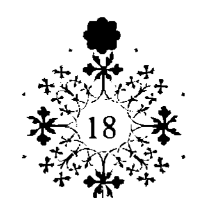
فقالوا: إنّك تتبع الهوى، وتوالي الرجال على أسمائها، لا على أفعالها، والله لنقتلنّك قتلة ما قتلناها أحداً!

فأخذوه فكتّفوه، ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حُبلى في نهاية حملها حتى نزلوا تحت نخل مواقر (أي كثير الحمل) فسقطت منه رطبة، فأخذها أحدهم فقذف بها في فمه.

قال أحدهم: بغير حلّها وبغير ثمن! فلفظها وألقاها من فمه، ثم أخذ أحدهم سيفه فمرّ به خنزير لأهل الذمّة فضربه بسيفه.

فقالوا: هذا فساد في الأرض، فأتى صاحب الخنزير فأرضاه!

فلمّا رأى ذلك منهم ابن خبّاب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى، فما عليّ منكم بأس، إنّي لمسلم، ما أحدثت في الإسلام حدثاً ولقد آمنتموني وقلتم: لا روع عليك.

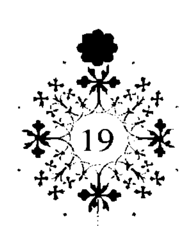


فجاؤوا به فأضجعوه، فذبحوه فسال دمه في الماء، وأقبلوا على المرأة، فقالت: إني أنا امرأة ألا تتّقون الله، فبقروا بطنها! وقتلوا ثلاث نسوة من طيء وقتلوا أم سنان الصيداوية[1].

(١) تاريخ الطبري، ج٤، ص٦٠-٦١.

بالله عليكم، أليس هذا ما تصنعه قوى الإرهاب والتكفير في وقتنا هذا؟! أليست هوية الذّبح وحزّ الرقاب التي ينتمي إليها داعش وغيرها هي عين الهوية التي نُسبت إلى الخوارج بتلك الأعمال الإجرامية الوحشية؟! ولهذا قلت في البداية إنَّ ثقافة حزّ الرقاب لم تأتِ من فراغ، ولم تكن وليدة اللحظة، بل التأريخ يُعيد نفسه بمعية الإجرام الحاصل.

وعلى الرغم ممّا ارتكبه هؤلاء الإرهابيون من الإجرام، ومن جرأتهم على تكفير الإمام عليّ عليه السلام فإنّه في المقابل رفض أن يواجه التكفير بتكفيرٍ مضاد، بل نراه قد دافع في أكثر من مناسبة عن إسلامهم وحقوقهم، وأكّد على ضرورة التعامل معهم معاملة المسلمين، فقد سُئل عن أهل النهروان هل كفروا؟ قال: «**من الكُفر فرّوا**، قيل: فمنافقون؟ قال: **إنّ المنافقين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، وهؤلاء تحقّرون صلاتكم بجانب صلاتهم**. قيل: ماذا تقول فيهم؟ قال: **قومٌ تأوّلوا فأخطأوا**».



ومع ذلك تجد ابن حجر وأمثاله يستغربون كيف أنّ عليّاً عليه السلام لم يحكم بكفر هؤلاء، أو أنّ الإمام ـ حسب رأيهم ـ كان جاهلاً بمعتقدهم وأنّهم كَفَرة.

ورغم كلّ ما قاساه الإسلام من غلوّ الخوارج ونزعاتهم

التكفيريّة، ورغم ما عاناه إمامنا عليّ بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه نجده لا يحرّض المسلمين على قتلهم من بعده، فيقول عليه السلام: «**لا تقتلوا الخوارج بعدي فليس مَنْ طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه**».

واليوم نجد أنّ الجماعات التكفيرية لم تتورّع عن تكفير عامة المسلمين أو رميهم بالشّرك لمجرّد أنّهم يتبرّكون ببعض آثار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويتوسّلون به أو يحتفلون بذكرى مولده أو وفاته صلى الله عليه وآله وسلم. ومِن رحم تلك الفرقة خرجت كلّ الجماعات التكفيرية المعاصرة، والتي غدت تمثّل موجة عامة، وحملت سيف البغي والعدوان وشهرته بوجه مخالفيها في العقيدة والمذهب، الأمر الذي شوّه صورة الإسلام النقية، وأضعف المسلمين وحوّل بأسهم بينهم، وجعلهم مِلَلاً متناحرة وفرقاً متناثرة، يقتل بعضهم بعضاً.

ولو فتّشنا عن السّبب في جنوح هذه الحركات إلى العنف واعتمادها نهجاً وطريقاً في مواجهة الآخر ممّن لا تتّفق معهم في الرأي مسلماً كان أو كتابياً أو مشركاً، لما وجدنا مبرّراً لذلك سوى سوء فهم أتباع هذه الحركات للدين وجهلهم بأهدافه ومقاصده وتطلّعاته، وتمسّكهم بنصوصه بشكلٍ مجتزىء وانتقائي وعدم إحاطتهم به من جميع جوانبه.

وساهم في ذلك عوامل أخرى منها: هوى النفس وحبُّ الدنيا والأطماع والعقد النفسية الخاصة بحيث إنهم صاروا توّاقين لشرب الدماء وحمل الرؤوس بطريقة يستهجنها حتى الحيوان المفترس، ولا يخفى علينا دور القوى الاستعمارية الكبرى في خلق ساحات الدماء، فلا شكّ عندي أنّ أميركا وإسرائيل ومَنْ هم معهم يعمدون وبكلّ القوى إلى إنجاح مشروع الإرهاب والإرهابيين وتغيير خارطة العالم الإسلامي، وطبعاً تحت مسمّيات شتّى كالربيع العربي، ولم يُسجّل إطلاق طلقة واحدة من هذا «الربيع» ضدّ إسرائيل وهذا واضح في أسبابه.

المشكلة ليست فقط في ممارسات عنيفة وقاسية تُرتكب هنا أو هناك، بل في ثقافة مشوّهة (ثقافة العنف) وتعبئة خاطئة تنتج التطرّف وتنتهج العنف وسفك الدماء وتصنع أفراداً وجماعات أشدّاءَ غلاظاً قُساةً على المؤمنين والكافرين على حدٍّ سواء.



***



من صُوَر العنف في صدر الإسلام

ومن شواهد العنف والإرهاب أيضاً في تأريخ الإسلام بعد رسول الله ﷺ ما نقلته كتب العامة من جمهور المسلمين حول مقتل محمد بن أبي بكر وكيفية التمثيل به بعد مقتله وتقديمه إلى أخته عائشة زوج النبي ﷺ على طبق وهو مشويّ!



فقد حدّثنا: محمد بن عبد الله، عن المدائني، عن محمد بن يوسف، أنّ عمرو بن العاص لما قتل كنانة أقبل نحو محمّد بن أبي بكر، وقد تفرّق عنه أصحابه، فخرج محمد متمهّلاً، فمضى في طريقه حتى انتهى إلى خربة، فآوى إليها، وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط، وخرج معاوية بن حديج في طلب محمّد، حتى انتهى إلى علوج على قارعة الطريق، فسألهم: هل مرّ بهم أحد ينكرونه؟ قالوا: لا، قال: أحدهم: إنّي دخلت تلك الخربة، فإذا أنا برجلٍ جالس، قال

ابن حديج: هو هو وربِّ الكعبة، فانطلقوا يركضون، حتى دخلوا على محمّد، فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً، فأقبلوا به نحو الفسطاط. قال: ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص، وكان في جنده، فقال: لا والله لا يُقتل أخي صبراً، ابعث إلى معاوية بن حديج فانْهَهُ، فأرسل عمرو بن العاص: أن ائتني بمحمّد، فقال معاوية: أقتلتم كنانة بن بشر، ابن عمي وأُخلّي عن محمّد! هيهات! ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[القمر: ٤٣] فقال محمد: اسقوني قطرة من الماء، فقال له معاوية بن حديج: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً، إنّكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً مُحرِماً، فسقاه الله من الرحيق المختوم، والله لأقتلنّك يا ابن أبي بكر وأنتَ ظمآن، ويسقيك الله من الحميم والغِسْلين، فقال له محمّد: يا ابن اليهودية النسّاجة، ليس ذلك اليوم إليك ولا إلى عثمان، إنّما ذلك إلى الله يسقي أولياءه ويُظمىء أعداءه، وهم أنت وقرناؤك ومَنْ تولاّك وتولّيته، والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني ما بلغتم. فقال له معاوية بن حديج: أتدري ما أصنع بك؟ أُدخلك جوف هذا الحمار الميت ثم أحرقه عليك بالنار، قال: إن فعلتم ذاك بي فطالما فعلتم ذاك بأولياء الله، وأيم الله إنّي لأرجو أن يجعل الله هذه النار التي تخوّفني بها برداً وسلاماً، كما جعلها الله



على إبراهيم خليله، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك، كما جعلها على نمرود وأوليائه، وإني لأرجو أن يحرقك الله وإمامك معاوية، وهذا ـ وأشار إلى عمرو بن العاص ـ بنار تلظّى، كلّما خبت زادها الله عليكم سعيراً، فقال له معاوية بن حديج: إنّي لا أقتلك ظلماً، إنّما أقتلك بعثمان بن عفان، قال محمّد: وما أنت وعثمان! رجل عمل بالجور، وبدّل حكم الله والقرآن وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾[المائدة: ٤٤]، ﴿**فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[المائدة: ٤٥]، ﴿**فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[المائدة: ٤٧]، فنقمنا عليه أشياء عملها فأردنا أن يخلع من الخلافة علناً، فلم يفعل، فقتله مَنْ قتله من الناس، فغضب معاوية بن حديج، فقدّمه فضرب عنقه، ثم ألقاه في جوف حمار وأحرقه بالنار، فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً، وقنتت في دبر كل صلاة تدعو على معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج، وقبضت عيال محمد أخيها وولده إليها، فكان القاسم بن محمد من عيالها، قال: وكان ابن حديج ملعوناً خبيثاً يسبّ عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ[١].

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٦، ص٨٦.



المكفّرون

ثم يأتي ابن تيميّة في القرن السادس للهجرة ليضفي على صبغة التكفير صبغة جديدة ولكن هذه المرة أكثر حدّة وقساوةً ممّن سبقوه، بل وربّما حتى فاق إرهابيّة الخوارج في فتاواه، فكان يكفّر أهل الملّة على أدنى الأسباب وأتفهها، وكان قلمه باشطاً يحدّه بأوداج المسلمين ليصدر فتاواه كيفما اتفق، حتى أنّه في إحدى فتاواه في كتابه (منهاج السُّنة) يُسأل عن رجلٍ كثير النسيان لوضوئه، فيُصدر فتواه بأنّه إن تكرّر فعل النسيان عنده فهو كافر، وطبعاً الكافر عنده حلالٌ دمُه ومالُه وعِرضُه!



وابن تيمية نَسَج أولى خيوط تكفير الشيعة، أو على تسميتهم الرافضة، وأنّ وجودهم أشدُّ خطراً من اليهود.

وقد كتب ابن تيمية كلامه في حكم الرافضة فقال: (لو أنّ يهودياً ذبح شاة، وذبح رافضيّ لأكلت ذبيحة اليهودي،

ولم آكل ذبيحة الرافضي، لأنّه مرتدّ عن الإسلام)[١].

أما **البخاري** فقال:

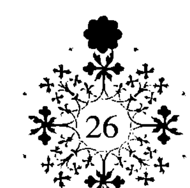
(ما أبالي صلّيت خلف الجهمي والرافضي، أم صلّيت خلف اليهود والنصارى، ولا يُسلّم عليهم ولا يُعادون (يُزارون) ولا يناكحون ولا يشهدون ولا تؤكل ذبائحهم)[٢].

ابن حزم الأندلسي يقول:

(وأمّا قولهم - يعني النصارى - في دعوى الروافض تبديل القرآن فإنَّ الروافض ليسوا من المسلمين، إنّما هي فرقة حدث أوّلها بعد موت رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة... وهي طائفة تجري مجرى اليهود والنّصارى في الكذب والكفر)[٣].

عبد القاهر البغدادي ت ٤٢٩ هـ قال:

(وما رأينا ولا سمعنا بنوعٍ من الكفر إلا وجدنا شُعبة منه في مذهب الروافض)[٤].



وقال أيضاً: (وتكفير هؤلاء واجب في إجازتهم على الله البداء، وقولهم بأنّه قد يريد شيئاً ثم يبدو له، وقد زعموا

---

(١) الصارم المسلول، ص٥٧٠.

(٢) خلق أفعال العباد، ص١٢٥.

(٣) كتاب الفصل، ج٢، ص٢١٣.

(٤) الملل، ص٥٢.

أنّه إذا أمر بشيءٍ ثم نسخه، فإنّما نسخه لأنّه بدا له فيه..)[1].

ويضيف **ابن تيمية** قوله:

(ومن اعتقد من المنتسبين إلى العلم أو غيره أنَّ قتال هؤلاء بمنزلة قتال البغاة الخارجين على الإمام بتأويل سائغ فهو غالط جاهل بحقيقة شريعة الإسلام ..لأنّ هؤلاء خارجون عن نفس شريعة رسول الله ﷺ وسنّته شرّاً من خروج الخوارج الحرورية، وليس لهم تأويل سائغ فإنّ التأويل السائغ هو الجائز الذي يقرّ صاحبه عليه إذا لم يكن فيه جواب كتأويل العلماء المتنازعين في موارد الاجتهاد. وهؤلاء ليس لهم ذلك بالكتاب والسنّة والإجماع، ولكن لهم تأويل من جنس تأويل اليهود والنصارى، وتأويلهم شرّ تأويلات أهل الأهواء).

محمّد بن عبد الوهاب قال:

(فإذا عرفت أنّ آيات القرآن تكاثرت في فضلهم ـ يعني الصحابة ـ والأحاديث المتواترة بمجموعها ناصّة على كمالهم، فمن اعتقد فِسْقَهم أو فِسْق مجموعهم، وارتدادهم وارتداد معظمهم عن الدين، أو اعتقد حقّية سبّهم وإباحته، أو سبّهم مع اعتقاد حقّية سبّهم، أو حليّته فقد كفر بالله تعالى ورسوله.. وغالب هؤلاء الرافضة الذين يسبّون

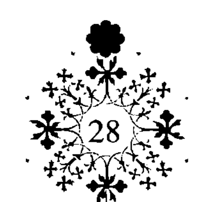
(١) المصدر السابق.

الصحابة يعتقدون حقّية سبّهم أو إباحته بل وجوبه، لأنّهم يتقرّبون بذلك إلى الله تعالى ويرون ذلك من أجلّ أمور دينهم)[١].

محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن وهو من علماء الدعوة النجدية يقول نقلاً عن ابن تيمية:

(وأمّا مجرّد السّلام على الرافضة ومصاحبتهم ومعاشرتهم مع اعتقاد كفرهم وضلالهم فخطر عظيم وذنب وخيم يُخاف على مرتكبه من موت قلبه وانتكاسه، وفي الأثر أنّ من الذنوب ذنوباً عقوبتها موت القلوب وزوال الإيمان)[٢].

وبلغ الأمر من الحقد والكراهية، على أنّهم لم يكتفوا بفتاوى القتل والإرهاب، بل حاولوا وأمروا أتباعهم أن يخالفوا بكلّ ما أتت به الرافضة، حتى وإنْ كان ذلك سُنّة نبوية شريفة سنَّها نبيُّ السلام، وبرّروا موقفهم هذا بأنّهم يتقرّبون إلى الله زلفى بمخالفتهم مَنْ حارب الله ورسوله حتى وإن كانت سُنّة في أيام النبي.



ومن هنا يقول ابن تيمية في منهاجه: (... ومن هنا ذهب مَنْ ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبّات إذا صارت شعاراً لهم فلا يتميّز السنّي من الرافضي ومصلحة التميّز

---

(١) الردّ على الرافضة، ص١٨.

(٢) الدرر السنّية، ج٧، ص٢١٤.

عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة هذا المستحبّ وهذا الذي ذهب إليه يحتاج إليه في بعض المواضع إذا كان في الاختلاط والاشتباه مفسدة راجحة على مصلحة فعل ذلك المستحبّ لكن هذا أمر عارض لا يقتضي أن يجعل المشروع ليس بمشروع دائماً، بل هذا مثل لباس شعار الكفار وإن كان مباحاً إذا لم يكن شعاراً لهم كلبس العمامة الصفراء فإنّه جائز إذا لم يكن شعاراً لليهود فإذا صار شعاراً لهم نهى عن ذلك)[١].

ومثال ذلك ما نقله ابن تيمية في منهاجه قائلاً: (لبس السواد كالعمامة السوداء صحّ عن النبي ﷺ لبسها لكن صارت في هذا شعاراً للرافضة فيشرع مخالفتهم في لبسها).

وقال ابن عبد البرّ في التمهيد:



(وقد كان التختّم في اليمين مباحاً حسناً لأنّه قد تختم به جماعة من السلف في اليمين كما تختم منهم جماعة في الشمال، وقد رُوِي عن النبيّ ﷺ الوجهان جميعاً فلما غلبت الروافض على التختّم في اليمين ولم يخلطوا به غيره كرهه العلماء منابذة لهم وكراهية للتشبّه بهم لا أنّه حرام ولا أنّه مكروه وبالله التوفيق)[٢]

---

(١) منهاج السّنة لابن تيمية، ج٤، ص١٥٥.

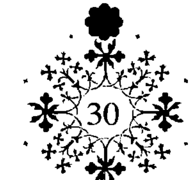
(٢) التمهيد، ج٦، ص٨.

وقال ابن تيمية:

(إنّما كثر الكذب في أحاديث الجهر لأنَّ الشيعة ترى الجهر وهم أكذب الطوائف فوضعوا في ذلك أحاديث لبسوا بها على الناس دينهم ولهذا يوجد في كلام أئمّة السُّنة من الكوفيّين كسفيان الثوري أنّهم يذكرون من السُّنة المسح على الخفين وترك الجهر بالبسملة كما يذكرون تقديم أبي بكر وعمر ونحو ذلك لأنّ هذا كان من شعار الرافضة).

لله در الشاعر حينما قال:

فيا محنة الإسلام من كل جاهل
ويا قلّة الأنصار من كلِّ عالم
وهذا أوانُ الصبر إن كنت حازماً
على الدين فاصبر صبر أهل العزائم

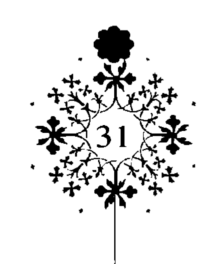


وقد صدق ربّ العزة والجلالة حينما خاطب الناس قائلاً: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسان عَدُوًّا مُّبِينًا**﴾ [الإسراء: ٥٣].

وبعد كلّ ما عرفنا لا نستغرب من أن يأتي اليوم فكر جديد بطرق القتل والذبح قديم المنشأ فيما أخذه من أسلافه، فعقيدة الذبح عند تنظيم «منشقّي القاعدة» المعروف بداعش أو المرجعية الفكرية التي يستند إليها التنظيم في

الذبح ترجع إلى فكر الخوارج الذين كانوا أوّل من فعل هذه الفعلة الشنيعة في الإسلام حيث أوقفوا الصحابي عبدالله بن خباب بن الأرت فذبحوه فسال دمه في الماء وبقروا بطن امرأته وهي حامل ـ كما مرَّ معنا سابقاً ـ .

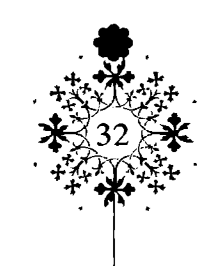
وأؤكد أنّ قطع الرؤوس ممارسة قديمة عرفتها البشرية بمختلف أجناسها وثقافاتها وأنّ هذه العملية غير الإنسانية كانت معروفة لدى بعض العرب في الجاهلية وبعد أن جاء الإسلام لم يثبت عن النبي ﷺ أنّه حُمل إليه رأس كافر بعد قطعه، ولا أنّه أمر بحزِّ الرؤوس، بل إنّ النصوص الشرعيّة لم تؤسّس لمثل تلك العقيدة التي ينتهجها تنظيم داعش في القتل والذبح والتمثيل. والكارثة الكبرى تكمن في محاولات هذا التنظيم الإرهابي إيجاد مبرّرات من الدين الشريف لشرعنة هذه الانتهاكات.



هؤلاء يعتمدون في رؤيتهم القتالية على عدد من الأحاديث والروايات التي يُساء تأويلها وتفسيرها ويُلوى أعناق نصوصها لتتوافق مع سياستهم الإجرامية في القتال والحرب مبرّرين شرعيّتها وادّعاءاتهم التي يزعمون من خلالها زوراً وبهتاناً تأسيس الخلافة الإسلامية على الأرض، فضلاً على أنّه لا يوجد أيّ نصٍّ شرعيّ صحيح صريح يدلّ على جواز ذبح العدوّ حيّاً فضلاً عن أن يكون سُنّة نبويّة متَّبعة! وإنّ النصوص وردت بالتفريق بين القتل

والذبح، وجعلت الذبح خاصاً بالبهائم والطيور للتذكية ولا يمتُّ ذلك للإسلام بأدنى صلة، فقد وضع الإسلام قواعد للقتال وطريقة التعامل مع الأسير والجريح والمدني والمحارب كما نهى عن التمثيل بالقتلى.

***





حُرمة التمثيل بالقتلى

قد يُشكِل علينا البعض بأنّ حزّ الرؤوس كان عادة الحروب آنذاك، وليست بالأمر المحرّم في زمن الإسلام، ولعلّ الغاية من ذلك تأكيد موت الفارس بحزِّ رأسه، وإلا ففي المعارك الحديثة تكفي رصاصة في الرأس كي تؤكّد للجندي أنّ مُنازله قد هلك، فقطع الرأس هنا لتأكيد الوفاة وليس لغرض المُثلة.. ولو كان لغرض المُثلة لكان بالإمكان فعل الكثير. ويظهر أنّها كانت شرعة الحرب في ذلك الزمان.

والبعض يرى أنَّ الدليل على ذلك أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب حزّ رأس عمرو بن ود العامري، وأنَّ الرواية تقول إنّه جلبه ـ أي الرأس ـ إلى رسول الله ﷺ، فلمّا رأى النبي الرأس كبّر وهلّل[١].

(١) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص٢٠٧.

الجواب: وأمّا أنَّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام قد احتزَّ رأس عمرو بن عبد ودّ وحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذلك وإن نقلته بعض الأخبار إلا انَّه ونظراً لضعفها لا يصحّ التعويل عليها.

هذا مضافاً إلى أنَّ هذه الأخبار مع قلَّتها منافية لما ثبت من حرمة إيقاع المُثلة حتى بالكافر كما أفاد ذلك فقهاء الإمامية رضوان الله تعالى عليهم كالشيخ الطوسي في كتابيه المبسوط[١] والنهاية[٢] قال: «لا يجوز التمثيل بالكفار» أي في الحرب وغيرها كما هو مقتضى وقوع هذه الفقرة في سياق البيان لأحكام حرب الكفار، وأفاد ذلك الشيخ ابن إدريس في السرائر[٣] وابن سعيد الحلِّي في الجامع للشرايع[٤] والعلامة الحلِّي في تحرير الأحكام[٥] وتذكرة الفقهاء[٦] ومنتهى المطلب[٧] والشهيد الثاني في المسالك[٨] وقد أفاد صاحب الجواهر رحمه الله أنه لم يجد خلافاً في ذلك[٩].

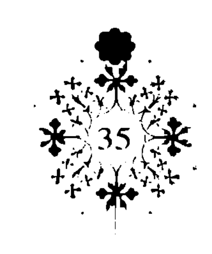
(١) المبسوط، ج ٢، ص١٩.
(٢) النهاية، ص٢٩٨.
(٣) السرائر، ج٢، ص٢١.
(٤) الجامع للشرايع، ص٢٣٧.
(٥) تحرير الأحكام، ج٢، ص١٤٤.
(٦) تذكرة الفقهاء، ج٩، ص٧٩.
(٧) منتهى الطلب، ج٢، ص٩١٢.
(٨) المسالك، ج٣، ص٢٧.
(٩) جواهر الكلام، ج٢١، ص٧٧.

ومَدْرَكُ الحكم بحرمة التمثيل حتى بالكفار، هو الروايات المتعاضدة الناهية عن التمثيل، منها:

ـ معتبرة مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا بعث أميراً له على سرية أمره بتقوى الله عز وجل في خاصة نفسه ثم في أصحابه عامة ثم يقول: أغزُ بسم الله وفي سبيل الله قاتلوا مَن كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً**»[١].

ـ ومنها: معتبرة محمد بن حمران وجميل بن دراج كلاهما عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا بعث سرية دعا بأميرها... لا تغدروا ولا تغلوا ولا تُمثّلوا... ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً**»[٢].

ـ وروايات أخرى كثيرة وردت من طرقنا وطرق العامة أعرضنا عن ذكرها خشية الإطالة ونظراً لوضوح المسألة.



وما قد يُقال من أنَّ قطع رأس الكافر بعد قتله ليس من المُثلة منافٍ لما هو المتفاهم العرفي من معنى المُثلة، بل إنَّ صدق المُثلة على قطع الرأس أولى من صدقة على بتر شيءٍ من أعضائه دون الرأس بنظر العرف، ويؤيّد ذلك ما هو المستفاد من كلمات اللغويين من أنَّ المُثلة تعني التنكيل بقطع شيءٍ من أطراف الميِّت.

---

(١) الوسائل، ج٣ـ ص١٥.
(٢) الكافي، ج٥، ص٣٠.

ثم إنَّه يمكن الاستدلال على أنَّ قطع رأس الميت يُعدُّ من المُثلة بمعتبرة الحسين بن خالد قال: سألتُ أبا الحسن عليه السلام فقلت: إنَّا روينا عن أبي عبد الله عليه السلام حديثاً أُحبُّ أن أسمعه منك فقال: **وما هو؟**، فقلت: بلغني أنّه قال في رجل قطع رأس رجل ميِّت... قلتُ: فمن قطع رأس ميِّتٍ أو شقَّ بطنه أو فعل به ما يكون فيه اجتياح نفس الحيّ فعليه دية النفس كاملة؟ فقال عليه السلام: «**لا ولكن ديته دية الجنين في بطن أمه قبل أن تلج فيه الروح وذلك مائة دينار... ودية هذا له لا للورثة... فلما مثَّل به بعد موته صارت ديته بتلك المُثلة له لا لغيره يُحجّ بها عنه**».

فالإمام عليه السلام قد وصف قطع رأس الميت بالمُثلة وأفاد: «**فلما مثَّل به بعد موته صارت ديته بتلك المُثلة له لا لغيره... يُحجّ بها عنه**».

والمتحصَّل ممّا ذكرناه أنّ ما نقلته بعض الكتب التاريخية من أنَّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام قد احتزَّ رأس عمرو بن عبد ودّ وحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منافٍ لما ثبت من الحكم الشرعي بحرمة المُثلة حتى بالكافر استناداً إلى ما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام بإسنادٍ معتبر ولذلك لا بدَّ من البناء على أنَّ هذا المنقول في كتب بعض المؤرخين مكذوب على عليٍّ عليه السلام والرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

على أنَّه لو سلَّمنا جدلاً أنَّ قطع رأس الكافر ليس محرّماً وإنّما هو مرجوح، فإنّ ذلك يقتضي الجزم بعدم صدوره من عليٍّ أمير المؤمنين عليه السلام وذلك لسموِّ أخلاقه وترفُّعه عن أن يصدر منه المرجوح من الأفعال، وقد ذكر الكثير من المؤرخين أنَّ علياً عليه السلام بعد أنْ قتل عمرو بن عبد ود لم يسلبه درعه وعلَّل ذلك بعد أن سأله عمر بن الخطاب وقال له إنّه ليس في العرب درع خيراً منها، أفاد عليه السلام في جوابه لعمر بن الخطاب: «**إنِّي استحييتُ أنْ أكشف عن سوأة ابن عمّي**» يعني عمرو بن عبد ود .

ذكر ذلك المفيد في الإرشاد، والحاكم في المستدرك على الصحيحين وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق، وابن كثير في البداية والنهاية، وابن أبي فتح الأردبيلي في كشف الغمة، وابن كثير في السيرة النبوية، وابن شهرآشوب في المناقب وغيرهم.

كما يمكن تأييد ذلك بالروايات الكثيرة المرويّة من طرقنا وطرق العامة والتي أفادت أنّ علياً عليه السلام كان يُشدِّد على أمراء السرايا والمقاتلين بأن لا يُجهزوا على جريح ولا يُمثِّلوا بقتيل، وكان من آخر وصاياه النّهي عن المُثلة ولو بالكلب العقور كما رُوي ذلك بطرق متعاضدة.





شبهة أنّ عليّ الأكبر عليه السلام
حزّ رأس عدوّه في كربلاء

جاء في رواية: إنّ عليّ بن الحسين (علي الأكبر) سلام الله عليهما، صال وهزم الجمع فنودي له بكر بن غانم ليبارزه ..وبعد أن طعنه الأكبر في خاصرته وألقاه من على ظهر جواده نزل فحزّ رأس عدوّه، ونقل البعض بأنَّ الأكبر عليه السلام قتل بكر بن غانم أثناء المواجهة وضربه بسيفه على رأسه فقطعها وهذا شيء طبيعي في الحرب، فالفارس بسيفه يضرب كلّ مَنْ يقترب صوبه ليواجهه.. قد يضرب رأسه أو أيّ مكان في جسمه .. قد يسقط هذا صريعاً أو مجروحاً.. وينتقل المحارب لشخص آخر.

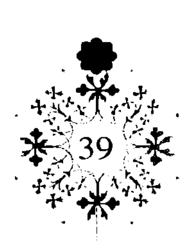
وتقول الأخبار بأنَّ الأكبر حمل رأس عدوه نحو أبيه الحسين عليه السلام ، وإنّ الإمام فرِح بهذا الصنيع من ولده عليّ الأكبر!

وفي الحقيقة إنّ بعض العلماء تناولوا هذه الرواية بالرفض، وبحثوا عن مصدرٍ لها فلم يجدوا لها أصلاً إلاّ على ألسنة بعض خطباء المنابر.

فبعد البحث في المصادر المعتمدة والمَقَاتِل التي كتبها المؤرخون من الفريقين لم نجد لهذا الخبر عيناً ولا أثراً، فلعلّ الخطباء اعتمدوا في نقله على ما يكتبه القصَّاصون الذين غالباً ما ينسجون الأخبار من مخيَّلتهم.

والمضعِّف الآخر للخبر المذكور هو اشتماله على ما ينافي مقام الشهيد علي بن الحسين الأكبر، فَقَطْعُ الرأس وحمله من أجلى مصاديق المُثلة والتي ثبت بالضرورة الفقهية حرمتها .

فلا يمكن أن نقبل بدعوى صدور هذا الفعل من مثل الشهيد عليّ الأكبر، وذلك لمعرفتنا بجلالة قدره وسعة علمه وفقهه خصوصاً وأنّ الخبر المذكور تضمَّن دعوى أنّ الأكبر قد حمل الرأس إلى الحسين عليه السلام، فلو فرضنا إمكانية صدور هذا الفعل من الأكبر فإنّ من غير الممكن القبول بعدم ردع الإمام الحسين عليه السلام عن هذا الفعل وإظهاره الرضا به كما هو مقتضى لحن الخبر المذكور، فعصمة الإمام الحسين عليه السلام ومسؤوليّته الدينية تُحتِّم عليه الردع أو التعبير عن عدم الرضا لو اتفق صدور

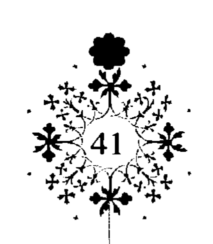


الفعل من أحد أنصاره فضلاً عن صدوره من أحد أبنائه. نعم يمكن احتمال صدق الخبر لو قيل إنّ سقوط الرأس نشأ عن ضربات عليّ الأكبر لعنق الرجل أثناء المنازلة، إلا أنَّ الخبر المذكور لم يكن كذلك، ولعلَّ أصل الخبر كان بهذا النحو، إلا أنّ الكاتب أضفى عليه من مخيَّلته ما أنتج وصوله إلينا بهذه الصورة. على أنَّ ثمة مبعِّداً آخر لوقوع الحدث المذكور، وهو أنّ من غير المتعارف عليه في الحروب قطع الرؤوس إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها، وذلك لأنّ النزول للمعركة لقطع رأس مقاتلٍ والحرب قائمة يعني حتمية الهلاك أو على أقلّ تقدير فيه مظنّة الهلاك خصوصاً في مثل واقعة الطف، حيث لم يكن بين الجيشين تكافؤ، فالنزول لقطع رأس مقاتلٍ يعني الذهول عن المعركة ولو لوقتٍ يسير، وهو يكفي لأن يُباغته أحدُ المقاتلين بضربةٍ أو طعنة أو يطيش سهم فيقع في مقتلٍ من مقاتله. وافتراضُ وجودِ حمايةٍ كافية حين نزول الأكبر لقطع رأس الرجل يُبعِّده الوقوف على التفاوت الهائل بين الجيشين في العدد والعُدّة.

ولو تجاوزنا كل ذلك فإنَّ الخُلق الرفيع وسموَّ الذات الذي كان يمتاز به أهل البيت عليهم السلام يحول دون الوثوق بوقوع الحدث المذكور، فلا يسعنا إلا أن نقول بسقوط هذا

الخبر عن الاعتبار، وبأنَّ نقله إساءةٌ لمقام الشهيد علي بن الحسين الأكبر عليه السلام والذي شيَّعه أبو عبد الله الحسين حين أراد النزول للمعركة بقوله: «**اللهمّ اشهد على هؤلاءِ القوم فإنَّه برز إليهم غلامٌ أشبهُ الناس خَلقاً وخُلُقاً ومنطقاً برسولك** صلى الله عليه وآله وسلم».

***





رسول اللّاعنف

يبقى أن نبيّن الموقف المعاكس لدى الإسلام من العنف والإرهاب والتكفير، حيث نجد الروايات المستفيضة القيّمة في هذا الباب تُشير إلى أنّ نبي الإسلام كان يرفض رفضاً قاطعاً كلّ أساليب التخويف والترويع التي يمكن أن يمارسها المسلم في حقّ أخيه المسلم أو غيره، لأنّنا نعلم أنّ دين الإسلام أمرنا باحترام وتقديس كلّ الديانات والانتماءات واحترام الأخوة، وتقديس الإنسانية في الإنسان، والتي نحن بأمسِّ الحاجة إليها في عصرنا هذا، عصر القتل والتكفير وتجريد الإنسان ـ أي إنسان ـ من إنسانيّته التي أودعها الله فيها، فالملائكة راهنت على أنّ الإنسان بتركيبته ميّالٌ إلى الإفساد والقتل، والله تعالى حكم على الإنسان بإنسانيّته ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ**



﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

وأمير المؤمنين سلام الله عليه صنّف لنا الناس بتعايشهم بعبارة مختصرة جمعت كلّ قوانين التكافل الاجتماعي ومبدأ التعايش والمواطنة، فقال: «**الناس صنفان: إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق**».

وأتذكّر ما مضمون الرواية، أنّ الإمام عليّاً عليه السلام أُخبر بأنّ جيش المسلمين نهبوا حُليّ نساء اليهود والنصارى، فقال ما مضمونه: «**لو أنّ أحداً مات غُصّة لِمَا سمع فهو غير ملوم**» ثم تقول الرواية: إنّ الإمام أخذ ينحب ويبكي تأسّفاً على ما فعله جيش المسلمين بنساء اليهود والنصارى وبما يملكون.

هكذا قدم لنا محمّد وعليّ والأئمة الأطهار دين السلام والإسلام، بصورةٍ متناقضةٍ تماماً لما قدّمه الخوارج وأتباع ابن تيميّة وابن باز ومحمّد بن عبد الوهاب والدواعش اليوم.



إحدى أهمّ الأدلّة على أنّ الإسلام يتّبع أسلوب اللاّعنف هي منهجيّة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته في تعامله حتى مع مناوئيه، حيث إنّه صلى الله عليه وآله وسلم قدّم للبشرية جمعاء خير شاهد على أنّ الإسلام يدعو إلى اللاّعنف وينبذ البطش والعنف.

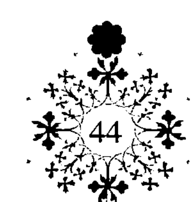
ونذكر هنا بعض الشواهد:



الرِّفق بالأسرى

عندما فتح الإمام عليّ (عليه السلام) خيبر أخذ فيمن أخذ صفيّة بنت حييّ بن أخطب فدعا بلالاً فدفعها إليه، وقال له: يا بلال لا تضعها إلاّ في يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتّى يرى فيها رأيه. فأخرجها بلال ومرّ بها في طريقه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على القتلى، فكادت تزهق روحها جزعاً، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لمّا علم بذلك: **أنُزعت منك الرحمة يا بلال؟** ثمّ عرض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليها الإسلام، فأسلمت، فاصطفاها لنفسه ثمّ أعتقها وتزوّجها، فكانت امرأة مؤدّبة.

ومن مكارم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، أنّه لم يهدر دم أحد إلا إذا كان مستحقّاً للقتل لعظيم جرمه، وكانوا قلة، كقاتل عمّه حمزة، ومع ذلك فإنّ أكثرهم استأمن لهم بعض معارفهم، فأمّنهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخرجوا من استتارهم، وجاؤوا إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) وأسلموا على يديه، فقبل إسلامهم وعفا عنهم.



وكان أحد هؤلاء: صفوان بن أُميّة، وقد فرّ يومئذ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ، فأمّنه، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكّة. فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر فردّه وقال: يا صفوان، اذكر الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله ﷺ قد جئتك به. فقال صفوان، وهو يستبعد ذلك حسب رأيه وحسب الموازين الحاكمة في الجاهلية سابقاً: أُغرب عنّي فلا تكلّمني. فقال له عمير، وهو يريد أن يطمئنه: أي صفوان أُعلمك أنّ أفضل الناس وأبرّ الناس وخير الناس ابن عمّك، عزّه عزّك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك. فقال صفوان، وهو يبدي ما في قرارة نفسه وما انطوى عليه الجاهليون من الغدر: إنّي أخافه على نفسي. فقال له عمير: إنّه ليس كما تتصوّر، بل هو أحلم من ذلك وأكرم. فاطمأنّ صفوان لمّا أراه عمير عمامة رسول الله ﷺ التي بعثها إليه علامة لأمانه. فرجع معه حتّى وقف به على رسول الله ﷺ، فقال: هذا يزعم أنّك أمّنتني؟ فقال ﷺ: «**صدق**».

قال: فاجعلني بالخيار شهرين.

قال ﷺ: «**أنت بالخيار أربعة أشهر**».

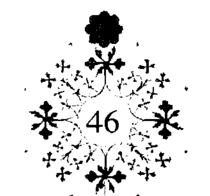
***



اللاّعنف في غزوة أُحد

عندما انكشف المسلمون يوم أُحد وانهزموا، عمد المشركون إلى رسول الله ﷺ فرشقوه بالحجارة حتّى شُجّ وجهه الشريف وجُرحت شفته السفلى، وكادوا أن يقتلوه ﷺ لولا حفظ الله تعالى له.

فقام ﷺ رافعاً يديه نحو السماء وهو يقول: «**إنّ الله اشتدّ غضبه على اليهود حين قالوا: عزير ابن الله، واشتدّ غضبه على النصارى أن قالوا: المسيح ابن الله، وأنّ الله اشتدّ غضبُه على مَنْ أراق دمي، وآذاني في عترتي**».



وفي الحديث: أنّه ﷺ كلّما سال الدم على وجهه المبارك تناوله بيده فرمى به في الهواء، فلا يرجع منه شيء.

وقد قيل له ﷺ: ألا تدعو عليهم؟

فقال ﷺ: «**اللهمّ اهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون**».

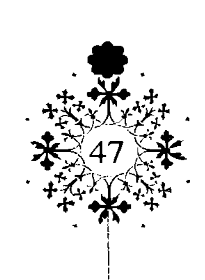
ثمّ كان يقول ﷺ أسفاً عليهم: «**كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيّهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله**».



سلوك النبي مع العنف

جاء الإسلام بتعاليم سماوية خالدة أحدثت رُقيّاً واسعاً في المجتمعات البشرية، وقد كان لذلك الدور الكبير والهائل في تفوّق المسلمين وتقدّمهم، فالإسلام بُني على أسس دعوته السماوية على مبدأ (السلم) ونَبْذ العنف معتبراً الجهاد آخر الحلول المطروحة للوقوف بوجه العنف.

ويحرص الإسلام كلّ الحرص على حماية الفرد، عن طريق حمايته لجميع مقوّماته المادية والأدبية، فيحمي نفسه ويحمي عرضه ويحمي ماله، فقال رسول السلام ﷺ: «**كلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**».



كما أنّه أعطى الحماية اللازمة للمواطنين الذين يعيشون في بلدٍ واحد مع المسلمين ويرتبطون معهم برباط متين من عهود السلم والأمان وحسن الجوار ويُسَمَّون باصطلاح الفقهاء بأهل الذمّة، أي لهم ذمّة الله ورسوله، يقول ﷺ عن هؤلاء المواطنين: «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**». وبذلك

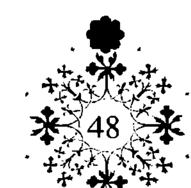
أصبحت دماؤهم وأموالهم وأعراضهم حراماً علينا كحرمة المسلمين سواء بسواء.

وأقرّ رسول الله (حلف الفضول)، وهو ذلك الحلف الذي عُقد في الجاهلية لنصرة المظلوم، وقال ﷺ: «**لو دُعيت إليه في الإسلام لأجبت**»(١).

ولهذا نجد من الروايات التي صدرت بلسان النبيّ كثيرة وكثيرة في الحثّ على السّلم والمعايشة ونبذ العنف والتكفير، فقوله ﷺ: «**الرفق بالرعية والتأنّي وحُسن المعاشرة مع لين في غير ضعف وشدّة في غير عنف**»(٢).

وقوله: «**إنّ الله رفيق يحبّ الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»(٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**فَوَلِّ من جنودك أنصحَهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك ... ممّن لا يثيره العنف**»(٤).



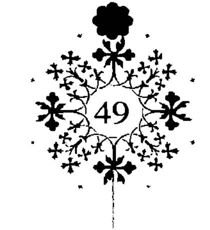
ولو رجعنا خطوة للوراء لأمكننا التعرّف على موقف الإنسان الأوروبي الذي يدّعي الآن أنّه صاحب الفكر المعتدل وأنّ المسلمين هم أصحاب الفكر المتطرّف،

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ص١٦.
(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٥، ص٢٧٢.
(٣) صحيح مسلم، ج١٦، ص٣٦٢.
(٤) نهج البلاغة، قسم الرسائل.

لو رجعنا لنلاحظ موقف الأوروبي من تراث وحضارة المسلمين قبل عدّة قرون، وبالتحديد إبّان سقوط الأندلس وتراجع المسلمين فيها أمام مؤامرات وغارات التنصير، كما ينقل ذلك حسن السيد عز الدين بحر العلوم في كتابه (مجتمع اللاعنف)، فسنجد الموقف الغربي تجاه الإسلام وأهله يناظر موقفه من بقية الحضارات، إذ يتكرّر استنساخ رؤيته في نفي الآخر في كلِّ حالة مواجهة بينه وبين أي حضارة أخرى.

فمثلاً في مرة واحدة يجري إحراق ٧٠٠ شخص في إشبيلية، و١١٣ شخصاً في (أبلة)، أما في مدينة طليطلة فقد مَثُلَ أمام المحكمة ١٢٠٠ شخص حُكم عليهم بالإعدام في جلسة واحدة، وكان يُطلب إلى الشخص إما الإيمان بالمسيحية وترك الإسلام، أو الموت حرقاً، ومن هنا جاءت التسمية بجلسات الإيمان[1].



أمّا في صدر الإسلام فحقيقة تأريخه حافلة ومشرّفة بنبذ العنف وتأصّل السّلم في منهجيّته، وأعني بتأريخ الإسلام تحديداً في الصدر الأول المتمثِّل بسيرة النبي الأعظم ﷺ، وإلا بعد وفاته فإنّ الأحداث قد تغيّرت للأسف الشديد.

ومن هنا نلاحظ قلّة الضحايا في الحروب التي فُرضت

---

(١) نشأت الخطيب، الأصول الدينيّة للحروب الصليبيّة في المشرق والمغرب.

على المسلمين، حيث لم يتجاوز عدد القتلى من الطرفين الألف وبضعة قتيل، مع أنّ الرسول استطاع أن يُقيم حكماً راسخاً، ويكوّن أمّة عظيمة لم يشهد لها التأريخ.

وقد أثبت التأريخ أنّ أغلب القبائل العربية دخلت الإسلام في زمن السِّلم. وما انضمام الأوس والخزرج للإسلام وبدون حرب إلا دليل على منهجية الإسلام السلمية ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[البقرة: ٢٥٦].

ويُعتبر دور الرسول ﷺ والمسلمين في مكة طوال ثلاثة عشر عاماً شاهد صدق على ذلك، فبالرغم من أنّ الرسول تعرّض إلى أشدِّ أنواع الأذى كسائر أنبياء الله إلا أنّ معاناة النبيّ ﷺ كانت الأشدّ وهو القائل: «**ما أُوذِيَ نبيّ قطّ مثل ما أُوذيت**». وبالرغم من كلِّ ذلك كان يكرّر قولته المشهورة: «**اللّهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون**».

والشاهد على ما نروي، وصايا الرسول الأعظم لأتباعه من المسلمين في أيّة غزوة حينما كان يقول: «**لا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً لا يطيق قتالكم**»[١]، وقال ﷺ: «**لا تقتلوا أهل الصوامع**»[٢] وإنّ النبي كان يوصي بالأسارى وبحسن معاملتهم «**استوصوا بالأسارى خيراً**»[٣].

---

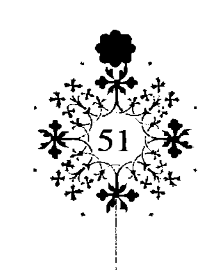
(١) مسند الإمام زيد، ج٢، ص٣١٣.
(٢) شرح نمات العبادات، ص٢٩٨.
(٣) السيرة النبوية، ج٢، ص٢٩٩.

وحينما طالب أحد الصحابة رسول الله ﷺ أن يدلع لسان أحد المشركين الذين هجوا رسول الله ﷺ في مواضع عديدة، أجاب رسول السلام «**لا أمثّل به فيُمثّل الله بي وإن كنت نبيّاً**»[1].

بل أكثر من ذلك نهى النبي الأكرم عن قطع شجرة مثمرة في أرض العدوّ، أو إغراق المساكن، أو إلقاء السُّمّ في المياه[2].

وأمر كذلك بوجوب الاستجابة للاستجارة وطلب الأمان عملاً بقول الله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ**﴾[التوبة: ٦].

وما ينقله الشهيد مرتضى مطهري أعلى مقامه الشريف في كتابه (دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية في الجزء الثاني الصفحة الخامسة)، من أنّه وبعد دخول المسلمين من الجهات الأربعة لمكّة المكرمة بأمر الرسول ﷺ تحسّباً لأيِّ طارىء، مع حرص النبي على أن لا تُراق قطرة دم، فيأتي سعد بن عبادة بأعلى صوته ينادي «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسبى الحُرمة».



---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٤.

(٢) الكافي للكليني، ج٥، ص٢٨.

فيسمع رسول الله ﷺ نداء سعد وهو يتوعّد قريشاً، فيأمر عليّ بن أبي طالب عليه السلام ليخلع سعد ويأخذ بالراية، فخلعه عليّ عليه السلام وأخذ منه الراية وصار ينادي بأعلى صوته: «**اليوم يوم المرحمة، اليوم تُصان الحرمة**». وكم هو الفارق بين النداء الأول والأخير!

ثم يدخل النبيّ ﷺ مكة، ويقف على باب الكعبة بعد أن طاف ثم خطب: **يا معشر قريش، ما ترون أنّي فاعل بكم؟** قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: **اذهبوا فأنتم الطلقاء!**

ولو لاحظتم أنّ نبي السلام يأمر بعزل سعد وتؤخذ منه الراية لمجرّد أن تفوّه بكلام قد يُوحي إلى العنف وسياسة الترهيب، فاختار ﷺ رجلاً يخاله يعرف ماذا سيقول، وكان أمير المؤمنين أهلاً لهذه المهمّة، فنادى بنداء الإسلام، نداء الرحمة، نداء الأنسانيّة ونبذ الإرهاب (**اليوم يوم المرحمة**).



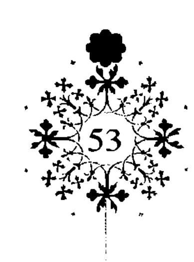
***



علاج العنف

لا شكّ أنّ الوقاية خيرٌ من العلاج، وأنّ وقاية الفرد والمجتمع من الانجرار نحو العنف بكلِّ أشكاله وصوره يُسهم مساهمة فعّالة في عملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية، لأنّ العنف بصورة عامة يعرقل عملية البناء ويعيق الاستقرار الامني والاجتماعي.

وينبغي أن نثابر على زرع روح المحبّة والتآخي والأُلفة وتنمية ثقافة (أنا آسف) في محاولة للاعتراف بالخطأ الذي هو فضيلة، وتنمية ثقافة (أنا مخطىء) إذا ثبت خطأ ما أتبنّاه من فكرة، ونبذ الدوغمائية التي فتّقت خيوط اللُّحمة والبنيان المرصوص، وعلينا أيضاً تشجيع الناس على قراءة القرآن والتدبّر فيه لأنّ في القرآن العبرة لمن يعتبر والدروس التي من خلالها يُرتقى بالنفس الإنسانية.



كما وعلينا أيضاً تهذيب الأنفس من خلال مطالعاتنا

لروايات وأحاديث أهل البيت عليهم السلام التي حرّضت على الحبّ والتحاب «**وهل الدين إلا الحب**»، والمعايشة السلمية، ومبدأ التسامح ومبدأ المواطنة.

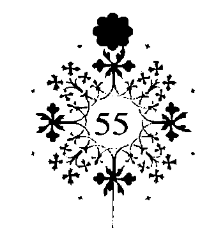
بل لا بدّ لنا إذا أردنا بناء مجتمع متماسك ومتضامن ومتكافل من أن ننشر ثقافة التحاب والتراحم بين أبنائه، فهذه الثقافة هي التي تخفّف من غلواء الخلافات البغيضة والعصبيّات المقيتة والتوتّرات الاجتماعية وتحدُّ من تأثيراتها السلبيّة، وأنّ مجتمعاً تتراجع فيه عاطفة الحبّ كما يقول الدكتور الشيخ حسين الخشن لتحلّ محلّها الكراهية والحقد هو دون شكّ مجتمع محكوم بالانهيار الداخلي عاجلاً أم آجلاً.

عندها لا نتعجّب حينما نرى في طيّات روايات الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيت العصمة عليهم أفضل الصلاة والسلام ما يحثّنا وبشكل عجيب على رسم خارطة الحب بدءاً من البيت، فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: «**قول الرجل للمرأة: إنّي أحبكِ لا يذهب من قلبها أبداً**»[1]، ويقول الصادق عليه السلام: «**إنّ الله ليرحم العبد لشدّة حبّه لولده**»[2] ويقول أيضاً سلام الله عليه: «**قال موسى بن عمران عليه السلام: يا رب أيّ الأعمال أفضل عندك؟ فقال: حبّ الأطفال فإنّي فطرتهم على**

(١) الكافي، ج٥، ص٥٦٩.
(٢) م.ن، ج٦، ص٥٠.

توحيدي، فإنْ أَمَتُّهُم أدخلتهم برحمتي جنتي»[1]. وهكذا حرّضونا سلام الله عليهم حتى على الأرض التي ولدنا فيها فقال ﷺ: «**تمسحّوا بالأرض فإنّها أمّكم وهي بكم بَرَّة**»[2].

من هنا نجد أنّ الإسلام يعطي العلاج التامّ لنقيض الحب وهو الحقد والكره والبغضاء والعنف من خلال جملة من التوصيات، حيث يُعطي للأيام الأولى من الحياة أهمية خاصة، فنراه يوصي الزوج باختيار شريكة حياته، فيقول ﷺ: «**تخيّروا لنطفكم فإنّ العرق دسّاس**»، كما يوصي ﷺ بعدم جعل الجمال في المرأة سبباً لاختيارها، فيقول ﷺ: «**إيّاكم وخضراء الدمن**» أي الفتاة الجميلة في منبت السوء، وهذه دعوة صريحة لتجنّب الجينات المريضة.



وفي وصية كتبها الإمام عليّ عليه السلام لعمّاله يقول: «**انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ولا تُروِعَنّ مسلماً ولا تجتازنّ كارهاً ولا تأخذنّ منه أكثر من حقّ الله في ماله، ثم امضِ إليهم بالسَّكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلّم عليهم... وإياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج ... فإنّا أُمرنا أن نأخذ منهم بالعفو**»[3].

---

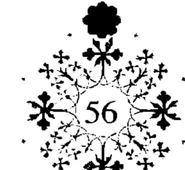
(١) المحاسن للبرقي، ج١، ص٢٩٣.

(٢) المجازات النبوية، ص٢٦٩.

(٣) نهج البلاغة، ٢٣.

وعلينا أن نسعى في رفض أسباب العنف وموجباته كما رفضنا نتائجه، فنحن بحاجة إلى إزالة الموجبات الاجتماعية التي تدفع الإنسان إلى تبنّي خيارات عنيفة في علاقاته مع الآخرين. بل علينا أن نكون حريصين أكثر ونبدأ من الطفل الذي يعمد الكثير من الآباء لشراء ألعاب العنف والحرب له ومشاهدة أفلام الرعب وألعاب الفيديو العنيفة، فقد أظهرت بعض الدراسات الحديثة أنّ الأطفال الذين يلعبون ألعاب فيديو عدوانيّة سوف يقلّدون سلوكيّات عدوانية عنيفة، وأنّه بسبب المحتوى للعنف المتكرّر في الألعاب فإنّ السلوك العدواني والأفكار العدوانية سوف تظهر للسطح.

ولا أنسى بدوري أن أشدّد على ضرورة كفّ بعض خطباء المنبر والوعّاظ من لغة القذف والسبّ بل وحتّى اللّعن، فمن الضروري أن يُتقن الداعية المسلم لغة عصره ويطّلع على ثقافته ويدرس الواقع ويقرأ في كتاب الحياة بقدر ما يقرأ في المتون والحواشي ليعرف مَنْ يخاطب؟ وكيف يخاطب؟ فإنّ «**العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس**»، كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، ولأنّ «**في التجارب علم مستأنف**» كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، ومن الطبيعي أنّ الخطاب هو التعبير الحيّ عن ثقافة الداعية والمرآة التي تعكس ثقافته وذهنيّته، وقد قالها



عليّ عليه السلام فيما يُروى عنه: «**المرء مخبوء تحت لسانه**».

وبوحي ممّا تقدّم يكون من اللازم إعادة النظر ـ باستمرار ـ في لغة الخطاب الديني ودراسة مدى مواءمتها للعصر وانتمائها للحاضر، كي لا تكون مجرّد صيحة في وادٍ أو هواء في شبك لا تجد آذاناً صاغية ولا تلقى اهتماماً من أحد.

ولو أردنا تقييم الخطاب الديني المعاصر لوجدنا أنّه على مستوى الظاهرة لا يزال ينتمي إلى الماضي، وإن كنّا لا نُنكر وجود نماذج كثيرة مشرقة تعمل على إيصال الإسلام إلى الإنسان المعاصر من خلال دراسة ذهنيّته قبل مخاطبته، مستفيدة في الوقت عينه من كلّ الوسائل الحديثة المتاحة لها في هذا الصدد، لكن غالبية الوعّاظ والدعاة لا يزالون أسرى للخطاب الماضوي والأساليب القديمة في التبليغ، وتتردّد على ألسنتهم مصطلحات عفا عليها الزمن ولم يبقَ لها وجود سوى في المعاجم اللغوية وهَجَرَها الناس لوحشيّتها أو غرابتها وثِقْلها على الأسماع والألسنة.



وعلى الواعظ أن يحذر كلّ الحذر من لغة التخويف والوعيد، وكأنّ القرآن لم ينزل إلا بلغة التخويف والوعد بالنار والسّعير، ويبدأ يكفّر مَن يريد ويسقّط مَن يريد دون تروٍّ، (بل يُخيّل إليك وأنت تستمع إلى البعض وهو يصنّف الناس ويوزّعهم على الجنّة والنار، أنّه يملك خزائن رحمة

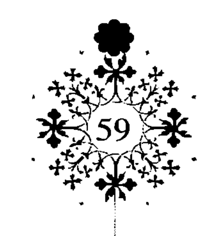
الله، أو أنّ الله تعالى قد جعله قسيم الجنّة والنار ومنحه حقّ توزيع صكوك الغفران وهبة أرض الجنّة للأتباع والأنصار فحسب، وعندما تستمع إلى البعض الآخر فإنَّه يضيّق رحمة الله ويحصر أهل الجنة بعدد قليل من الناس)[1].

وبعض الدّعاة قدّموا لنا الدين على أنّه دين قتل وعقاب وبؤس في الدنيا ثم عذاب القبر وضغطته وحيّاته وعقاربه وأنّ القبر ليضرب بالسُّوط عبداً لا لشيءٍ إلا لأنّه نسي وضوء الصلاة الكذائية كما ينقلون ذلك في بعض رواياتهم، وحينما يعرّجون على واقع الفتاة غير المحجّبة بالحجاب الشرعي فإنّهم يضعونها في قفص الاتهامات ويرمون بنشابهم ما يصيبون به أكباد أفكارهم، فأنتِ أيّتها السافرة إن لم تتحجّبي فمصيرك سقر وعليك لعنة الله والملائكة والنبيّين!

فالأسلوب الترهيبي التخويفي الذي يستعمله بعض الوعّاظ المسلمين يطغى عليه الحديث عن شدّة عذاب الله وعظيم ناره التي أعدّها للعصاة من عباده، وكثيراً ما يخوض أرباب هذا الخطاب وهم من ذوي النّزعات السلفيّة والتكفيرية غالباً في بيان التفاصيل المرعبة لنار جهنّم بما تقشعّر له الجلود ويشيب لهوله الوليد.

(١) العقل التكفيري، قراءة في المنهج الإقصائي، الشيخ حسين الخشن.

وجميل ما قرأت من عبارات كتبها الشيخ حسين الخشن في كتابه العقل التكفيري: (... وفي ضوء ذلك لا بدّ أن يكون الخطاب الديني منسجماً مع تلك الغاية السامية لإرسال الرسل وإنزال الكتب، ومقرّباً نحوها، الأمر الذي يفرض على الداعية سواء في مجال الوعظ الديني أو في مقام بيان المعتقدات أن يرصد باستمرار مدى تأثير خطابه على الناس سلباً او إيجاباً، فرُبَّ أسلوب كان مجدياً في زمن سابق لم يعد كذلك في زماننا، ما يفرض علينا تجديداً مستمرّاً في الخطاب مع بقاء الروح والمضمون، فليس كافياً أن تمتلك الحُجّة والبرهان لتكون مقبولاً عند الناس وتكون ناجحاً في إقامة الحُجّة عليهم، بل الأهم أن تعرف كيفية إيصالها إلى الناس باختيار الأسلوب الأنجح والأنجع والأكثر ملامسةً لوجدان الناس)[1].



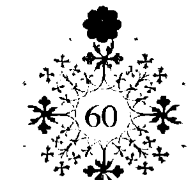
ولا زلت أتذكّر حينما كنت صغيراً أن الكثير خوّفني حتى من ربّ الرّحمة والعطف (إن كذبت فسيرميك الله في النار). (إن خدعت أحدهم فسيكويك الله بنار تلظّى)، مع أنّ حديث الرسول الأعظم ﷺ يقول: «**بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا**». وحتى عبارات: (أيّها الناس توبوا، معاشر المسلمين اتقوا الله.. توحي لك أنّك تعيش دهاليز مظلمة من العصيان والانغماس في الذنوب، مع أنّ

---

(١) المصدر السابق، ص٣٥٠، الخطاب الإسلامي بين التبشير والتنفير.

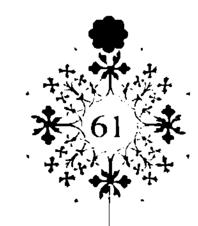
الله تبارك وتعالى يحثّنا على عدم اليأس والقنوط فيقول في سورة الزمر الآية ٥٣: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**.

لا بل حتى على مستوى أهل العصمة والطهارة والرحمة فقد صوّر لنا البعض على أنّ العباس بن علي بن أبي طالب سلام الله عليهما لا يعرف من دنياه إلا السيف ولا يمتهن إلا قطع الرقاب والاستئناس بالدم، وجرى الحال حتى مع الرسام الذي لم يصوّر لنا قمر العشيرة إلا رجلاً بشفاهٍ ذابلة يحمل سيفاً يقطُر دماً، وما أعظمه من وصف يصف به الإمام زين العابدين عليه السلام عمّه العباس فيقول: «**رحم الله عمي العباس، فلقد آثر وأبلى، وفدى أخاه بنفسه، حتى قُطِّعت يداه، فأبدله الله بجناحين، يطير بهما مع الملائكة في الجنّة، وإنّ للعباس عند الله تبارك وتعالى منزلة يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة**». هذه هي الصورة التي ينبغي أن تُقدّم عن كفيل أخته الحوراء لا الصورة التي يعرضها بعض الخطباء أو بعض الشعراء فيخيّل لهم أن العباس ذئب ودخل الغابة فكشّر عن أنيابه وأخذ يفترسهم! وصور العباس سلام الله عليه أجلّ وأسمى من أن يكون متشبّهاً بها. نقرأ في زيارته سلام الله عليه: «**أشهد أنّك قد بالغت في النصيحة، وأعطيت غاية المجهود، فبعثك الله في**



الشهداء، وجعل روحك مع أرواح السعداء، وأعطاك من جنانه أفسحها منزلاً، وأفضلها غرفاً، ورفع ذكرك في عليّين وحشرك مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً»، فما أعظمها من منزلة أن يُحشر المرء مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

ثم انتقلت العدوى لتصل إلى منقذ البشرية إمام الرحمة القائم المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الذي صوّرته لنا بعض الحكايات على أنه بقدر ما يقتل من الناس فإنّه سيشكّ العامّة والخاصّة على أنّه من ذرية فاطمة عليها السلام، وليت شعري أيّ فرق بين قائمنا الذي تصوّره لنا بعض الروايات المشكوك في سندها وبين ما قاله معاوية بن أبي سفيان الذي خطب بالمسلمين يوم تولّيه الخلافة قائلاً: «إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا إنكم لتفعلون ذلك. وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون».



مشكلتنا أنّنا استندنا على وهم وتركنا الجوهر الذي منه تكوّن إسلام الرحمة والسلام، وتركنا مَنْ جعله لنا ربّ العباد رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، مشكلتنا أنّنا جهلنا في كثير من الأحيان حتى أسلوب الحوار والنقاش بالتي هي أحسن ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت: ٣٤]، مشكلتنا كما

قال عنها المرجع الراحل السيّد محمد حسين فضل الله رضوان الله عليه: «مشكلتنا أننا نتحاور بغرائزنا وعقدنا النفسية ولا نتحاور بعقولنا ووعينا».

ومن أساليب معالجة العنف أن نزرع الحب في الحياة والأمل، بعيداً عن رؤى البعض من أنّ الدنيا سجن المؤمن، نعم ورد في الحديث: «**إنّ الدنيا سجن المؤمن**» لكن هذا لا يعني أنّ الدنيا دار بؤس وآلام وعذاب، فيبعث في قلوبنا هذا الحديث وأمثاله التشاؤم والتطيّر والتقاعس حتى، فالدنيا سجن المؤمن، نعم سجن عن ملذّاته وشهواته التي لا يمكن لها أن تكون حرّة طليقة إلا في عالم النشأة الأخرى. هذا هو معنى أنّ الدّنيا سجن المؤمن، من قبيل أنّ الذي يتزوّج حديثاً يُقال له دخل: (قفص الزوجية) لا بمعنى أنّه صار حبيس الزواج.



أساساً إنّما بعث الله رسوله بدين الإسلام لما فيه حياتنا ورفاهيتنا وسعادتنا ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[الانفال: ٢٤].

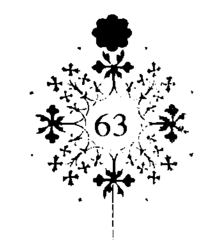
أيضاً علاج العنف يكون بالتعايش السلمي وأسلوب التعامل الحسن بين الآخرين، وأن يتسنّى للمسلمين أن يحقّقوا التعايش مع أنفسهم ومع مخالفيهم في الدين من الذين يشاركونهم المواطنة بعيداً عن لغة التكفير، فإذا كان

أرباب الاختصاص من علماء المدرستين قد اختلفوا في تكفير أهل البدع وذهب السواد الأعظم في عدم تكفيرهم، فكيف يمكن لنا ان نتجرّأ بتكفير بعضنا البعض ولأتفه الأسباب، ولكي يكون النص موثّقاً إليك آراء علماء المدرستين حول أهل البدع:

قال العلامة ابن حجر الهيثمي : (الذي صرَّح به أئمتنا أنّ من تكلّم بمحتملٍ للكفر لا يُحكم عليه حتى يُستفسر)[١].

ونقَلَ الملا علي القاري عن ابن حجر قوله: (الصواب عند الأكثرين من علماء السلف والخلف أن لا نكفِّر أهل البدع والأهواء إلا اذا أتوا بكفرٍ صريح لا استلزامي، لأنّ الأصحّ أنّ لازم المذهب ليس بمذهب، ومن ثم لا يزال المسلمون يعاملونهم معاملة المسلمين)[٢].

الملا علي القاري الحنفي، وهو من أعلام القرن الحادي عشر الهجري فيقول: (ذكروا أنّ المسألة المتعلّقة بالكفر إذا كان لها تسعة وتسعون احتمالاً للكفر واحتمال واحد في نفيه، فالأَوْلى للمفتي والقاضي أن يعمل بالاحتمال النافي، لأنّ الخطأ في إبقاء ألف كافر أهون من الخطأ في إفناء مسلم واحد)[٣].



(١) السنن الكبرى، ج٨، ص٢٠٩.
(٢) شرح سنن الترمذي، ج٦، ص٣٦٢.
(٣) شرح الفقه الأكبر، ص٦٢.

القاضي عيّاض (ت ٥٤٤ هـ) ينقل عن بعض المحقّقين: (يجب الاحتراز من التكفير في أهل التأويل، فإن استباحة دماء المصلّين الموحّدين خطر، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم واحد، وقد قال ﷺ: «**فإذا قالوها ـ** يعني الشهادة ـ **عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله**» فالعصمة مقطوع بها مع الشهادة ولا ترتفع ويُستباح خلافها إلا بقاطع، ولا قاطع من شرع ولا قياس)[1].

يقول الإمام تقي الدين السبكي وهو من أعلام القرن الثامن الهجري، في إجابة عن سؤال عن حكم تكفير المبتدعة وأهل الأهواء: (اعلم أيها السائل أنّ كلّ مَن خاف الله عزّ وجلّ استعظم القول بالتكفير لمن يقول: لا إله إلا الله محمّد رسول الله، إذ التكفير هائل عظيم الخطر، لأنّ مَن كفّر شخصاً بعينه فكأنّما أخبر أنّ مصيره في الآخرة جهنّم خالداً فيها أبد الآبدين، وإنّه في الدنيا مباح الدم والمال، ولا يُمكّن من نكاح مسلمة، ولا يجري عليه أحكام المسلمين لا في حياته ولا بعد مماته، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطر في سفك محجمة من دم امرئ مسلم).

وفي الحديث: «**لأَنْ يُخطىء الإمام في العفو أحبّ إليّ**

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج٢، ص٢٧٧.

من أن يخطىء في العقوبة».

يقول العلامة الشوكاني: (اعلم أنّ الحكم على رجل بخروجه عن دين الإسلام ودخوله في دين الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُقدِم عليه، إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنّه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المرويّة من طريق جماعة من الصحابة أنّ مَن قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما..)

وقد سأل الفقيه عبد الحقّ الإمام أبا المعالي عن مسألة التكفير فأجابه: (بأنّ إدخال كافر في الملّة وإخراج مسلم عنها عظيمٌ في الدين)[1].

أما علماء الشيعة فقالوا في التكفير:



السيد محسن الأمين قال: (تكفير المُقرّ بالشهادتين المتّبع طريقة المسلمين واستحلال دمه وماله وعرضه عظيم وأيّ عظيم! فلا يجوز الإقدام عليه واعتقاده، استناداً إلى أمورٍ نظرية اجتهادية يكثر فيها الخطأ، وأخبار ظنّية محتملة للكذب والتأويل، ولا يجوز تكفير المسلم إلا بشيء قطعيّ يوجب خروجه عن الإسلام)[2].

---

(١) نيل الأوطار، ج٧، ص٣٥٢.

(٢) كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب، ص٨٤.

يقول الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: (والإسلام والإيمان مترادفان ويطلقان على معنى أعم يعتمد ثلاثة أركان: التوحيد والنبوّة والمعاد، فلو أنكر الرجل واحداً منها فليس بمسلم ولا مؤمن، وإذا دان بتوحيد الله ونبوّة سيّد الأنبياء محمد ﷺ واعتقد بيوم الجزاء فهو مسلم حقاً، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، دمه وماله وعرضه حرام)[١].

السيد أبو القاسم الخوئي استدلّ على إسلام سائر فرق المسلمين من غير الشيعة، وذكر أنّ المناط في الإسلام وحقن الدماء والتوارث وجواز النكاح إنّما هو شهادة أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله[٢].

وأيضاً من أساليب معالجة العنف والإرهاب أن لا يسعى أتباع كلّ مذهب لفرض مذهبهم على الآخرين، وهذا ما لا تؤيّده الشريعة السمحاء حيث قال تعالى: ﴿**لَاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[البقرة: ٢٥٦] وقال جلّ جلاله: ﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾[يونس: ٩٩]، وهناك محاولات يذكرها التاريخ أنّ بعض الجهات حاولت أن تفرض مذهبها على الآخرين لأنّها تمتلك القدرة والقوّة ولكن لم يكن تأثيرها إلاّ محدوداً وفي مدّة معيّنة.

---

(١) أصل الشيعة وأصولها، ص١٢٦-١٢٩.

(٢) التنقيح في شرح العروة الوثقى، من تقريرات السيد الخوئي، ج٢ ص٨٤.

وأيضاً من مجموعة خيارات طرق المعالجة هو التعايش، وذلك بأن يعترف كلّ طرف للآخر بحقِّه في التمسّك بقناعاته ومعتقداته، وممارسة شعائره الدينية، ويتعامل الجميع كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، متعاونين لتحقيق المصلحة العامة ومواجهة الأخطار المشتركة.

وهذا ما يدعو إليه العقل والمنطق السليم، وتفرضه طبيعة الاشتراك ضمن وطن واحد، وكما يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**صلاح شأن الناس التعايش**».

فالمسلمون لم يعتمدوا على السيف في نشر عقيدتهم وإنّما اعتمدوا الفكر والتسامح والإحسان ونبذ التطرّف، ولم يكن السيف إلا مدافعاً عنه وعن حقوق أهله وحرية انتشاره، ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[البقرة: ١٣٦].

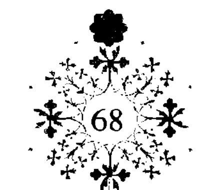


ولا يخفى على الإنسان الواعي المثقّف أنّ الخلافات والفوارق فيما بين الأفراد والجماعات في الأمّة جزئية وهامشية إلاّ أنّ انعدام الوعي وسيطرة الأمراض والأهواء الشخصية على نفس الفرد منهم يجعلانه يكابر ويغالي فيها

وبالتالي يعمل بشعور أو بلا شعور على تأجيجها وتوسيع رقعتها.

وقد يكون منشؤها أحياناً سوء الفهم البسيط والناشىء من احتكار صغار الأفراد في التجمّعات ميدانياً أو عبر المصادمات الفكرية والنقاشات الحادّة فيما بينهم، ولكن وللنظرة السلبيّة والمترسّخة في نفوس الجميع تُجاه بعضهم البعض يصبح سوء الفهم هذا سبباً لتأزّم المشاكل والنزاعات.

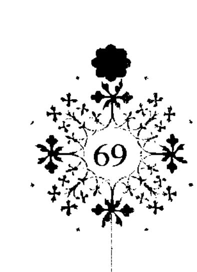
ولا حلّ لذلك إلا الانفتاح النابع من القلب ومن رغبة الاجتماع والأُلفة لكي يكون طريقاً إلى الحوار والتفاهم، ولكي يأخذ العقل والمنطق دورهما في حسم الأمور العالقة، بدل الاتّهامات الرخيصة وسوء الظنّ المتبادل.



ولا بدّ أيضاً الالتفات إلى نقطة مهمّة جدّاً، وهي أنّ التكفير والإرهاب لا يمكن مواجهته بالتكفير والإرهاب، ولذا أنتم تجدون أنّ استئصال جذور التكفيريّين لا يمكن أن يكون بقتلهم وإبادتهم، لأنّهم يكثرون يوماً بعد يوم، بل ربّما تزيد المشكلة تعقيداً والقناعة رسوخاً، بل إنّ السبيل الراقي في قطع جذورهم يكون بتغيير السموم التي تُبثّ في عقولهم، ناهيك عن أنّ الخُلُق الإسلامي يأبى مواجهة الشتيمة بمثلها والسيّئة بأختها، وإنّما يدعونا إلى الإغضاء

والصفح والدفع بالتي هي أحسن ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾فصلت: ٣٤]. ولنا في أمير المؤمنين عليه السلام أُسوة حسنة حيث شتمه الخوارج وكفّروه لكنّه رفض أن يقابلهم بالمثل، فهذه كتب التأريخ تحدّثنا أنّه كان ذات يوم جالساً مع أصحابه، إذ مرّت بهم امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال عليه السلام: «**إنَّ أبصار هذه الفحول طوامح وإنَّ ذلك سبب هبابها فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله فإنّما هي إمرأة كامرأة**»، وقد هزّت هذه الكلمات رجلاً خارجياً كان جالساً، فقال قاصداً الإمام عليه السلام: قاتله الله كافراً ما أفقهه! فوثب القوم ليقتلوه فقال عليه السلام: «**رويداً.. إنّما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب**».

وحينما سأل الإمام عن أهل الجمل أمشركون أم منافقون؟ قال بعبارة مختصرة ولكنّها بليغة تنمُّ عن روح المعصوم السامية: «**إخواننا بغوا علينا**».

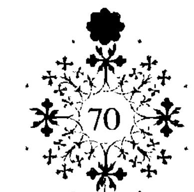


ومن هنا، فإنّنا نحتاج إلى دراسة سيرة النبيّ وآله، وأن نقف بتدبّر ممزوج بالوقار والهيبة لشخصية هؤلاء الذين أذهب الله عنهم الرِجس وطهّرهم تطهيراً، لكي نتعلّم منهم دروساً في العفو والتسامح والمعايشة بين الناس بقلوب رحيمة، غايتها قضاء حوائج الناس وهدايتهم، وتلك وظيفة الأنبياء التي قال عنها رسول السلام: «**إنّما أُمرت بمداراة**

الناس كما أُمرتُ بتبليغ الرسالة». ويا لها من كلمةٍ عظيمة يجعل النبي فيها مداراة الناس وكسبهم في كفّة وتبليغ الرسالة في كفّة وبالمعيار نفسه.

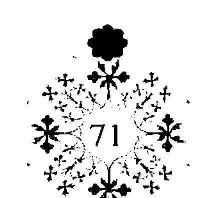
الباقر عليه السلام يخاطبه أحدهم من خلفه فيقول: يا بقر، فيلتفت له الإمام وبكلّ بشاشة وجه ورحابة صدر فيقول له: «**أمّا البقر فلها أربع ولي اثنان**»، ويرغب بعدها بقضاء حوائجه وإعطائه من المال ما يسدّ به حاجته، حتى يعلن ذاك الرجل إسلامه بين يدي الإمام.

نعم أيّها الأحبّة، نحن بحاجة إلى زرع ثقافة الحبّ والأُلفة بيننا كما كان يمارسها أهل البيت عليهم السلام مع الناس، لنزيل بذلك بذور الفتنة والكراهية بلونها الأسود، وأن نحرق ورقة العنف التي باتت متفشّية في كلِّ أصعدة الحياة. فالعنف الفردي، والعنف الأسري، والعنف الجماعي، والعنف السياسي، والعنف حتى في المدارس بأن يسيء الطالب إلى معلّمه لأنّه لم يمنحه الدرجة التي يرغب بها، وعنف الكثير من العشائر التي أضحت تتقاتل فيما بينها لأتفه الأسباب، فحُرِقت المنازل، وهُتِكت الأعراض، واستُبيحت الدماء. وما يحصل لدى بعض عشائرنا في الوقت الحاضر لشاهد على نمو العنف بمعية الجهل المدقع، وخصوصاً في القرى والأرياف.



إضافةً إلى عنف الناس في الشارع الذين يتقاتلون فيما بينهم لأمور لا يمكن أن تكون صادرة من إنسان كرّمه الله بعقله فعدّه أفضل المخلوقات عنده سبحانه، والمصيبة الكبرى أنّ طاعون العنف تفشّت عدواه حتى عند بعض المثقّفين والمتديّنين، فباتوا يتخاصمون لولائهم لحزبهم دون الحزب الآخر، وأتذكّر جيداً أنّني رأيت بأمِّ عيني متديّنين يتقاتلون مع بعضهم البعض لأنّهم يقلّدون المرجع الفلاني وغيرهم يقلّدون مرجعاً آخر!

لذا حريٌّ بالعلماء الآن والصلحاء وأهل المنابر أن يعمدوا إلى اعتماد توعية شاملة تعمل على غرس ثقافة الرّفق والاعتدال الفكري ونبذ التطّرف والعنف بكلِّ صوره، وتعميم تلك الثقافة في كلِّ الأوساط وتربية الجيل الصاعد عليها، إنَّ علينا أن نعمل على مواجهة العنف من خلال تفكيك البنى التحتيّة التي يرتكز عليها، وهي الثقافة التي تُنتج العنف وتُضفي عليه بعض التبريرات الدينيّة الموهومة.



وهذا المنهج، إذا عمل العلماء والمفكّرون على التنظير له وتأصيله، ومن ثَمَّ إشاعته في مختلف الأوساط وتربية الأمة عليه، فإنّه كفيل بالتخفيف من وطأة التكفيريين ونزع سلاح الشرعيّة من أيديهم، بخلاف ما لو كان الأسلوب المتّبع معهم هو أسلوب القمع والشدّة فقط، فإنّ ذلك لن

يزيدهم إلا شراسة وعدوانية، ولهذا وجدنا أمير المؤمنين عليه السلام قد تريّث كثيراً قبل أن يفكّر في مواجهة مكفّرة زمانه الخوارج، بل ناظرهم وحاورهم وأرسل إليهم الرسل لمحاججتهم وتفنيد ادّعاءاتهم، وفي ذلك درسٌ لنا بأن نفكّر في أسلوب الحوار مع الآخر قبل أن نفكّر في الحوار نفسه.

أيضاً كخطوة أخرى في مواجهة التكفير والإرهاب، ينبغي أن ندرس أسباب التكفير والعدوانية، ومعرفة منطلقاته عند الفرد والجماعة لمعالجتها والتخلّص منها، فربما كانت الأجواء الاقتصادية والأمنية والاجتماعية والسياسية مؤثّرة في نموّ الأفكار التكفيرية، وطريق المعالجة ينحصر برفع تلك الموانع وإزالة تلك الأسباب، فمثلاً ازدياد حالة الفقر وسوء الوضع المادّي له سببه المباشر في أن يختار ذلك البائس الفقير أسلوباً آخر ليجد لقمة العيش، ومن هنا استغلّ الإرهابيون بعض هؤلاء في تنفيذ مخطّطاتهم الإجرامية بعد أن منحوهم أموالاً طائلة لم يكونوا ليحلموا بها.

أيضاً المطلوب منّا إحداث زلزلة في البنى التحتية والركائز الأساسية للفكر التكفيري بإثبات وهنه من الناحية الإسلامية وابتعاده عن أُسس الشرعية الدينية، لإظهار التكفير ثقافة شاذّة عن المناخ العام، وبذلك يتمّ تجفيف

منابع الإرهاب والتطرّف لا بأسلوب العنف وملاحقة الأشخاص لمجرّد ميولهم الإسلامية او انتسابهم إلى بعض الحركات السلفية.

ولا يقتصر الإرهاب والتكفير على هؤلاء كما بيّنا من قبل، بل أسلوب العنف والعدوانية من الخطورة بمكان حيث لا بد من الوقوف عليها لمعالجتها. فرفض الفرد سماع الرأي الآخر عنف، ومبدأ (إن لم تكن معي فأنت ضدّي) عنف، والتعصّب بالرأي عنف، وعدم قبول نصيحة الآخرين مظهر من مظاهر العنف، وخصومات العشائر وزهق الأرواح فيها أكبر صور العنف، وعدم احترام القوانين زاوية من زوايا العنف.

والنقيض من ذلك أن نعوّد ألسنتنا على الكلمة الطيّبة والتي عبّر عنها رسول الله ﷺ بأنّها صدقة. علينا أن نعوّد ألسنتنا على كلمة (حبيبي) التي صارت شحيحة، فلا الزوج يمارس نطقها لزوجته، وما عاد الأب ينعت ابنته بها، بل الظلامة عين الظلامة أن نجد الأخ يترفّع عن النطق بكلمة (حبيبتي) لأخته التي تعيش معه تحت سقف واحد لسنوات، فتكون محرومة من سماعها، وقد يصل الحال بالأخت المسكينة أن تبحث عمّن يخاطبها بها ولو بطرقٍ غير شرعية ولا أُبرّر! ولهذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام «**التوّدد نصف العقل**».



وتخيّلوا معي لو أنّ عاطفة الأبناء تبرد تجاه الآباء ماذا سيحصل بالمجتمعات بعد ذلك، والإمام زين العابدين عليه السلام يقول في دعائه بحقّ أبويه: «**اللهم اجعلني أهابُهُما هيبة السلطانِ العَسُوف**»!

والخطوة التي أكتفي بها في سبيل معالجة مرض العنف هي تعزيز ثقافة التسامح ونشر رسالة المحبّة والتأكيد على احترام الآخر في نفسه وماله وعرضه، ورعاية حقوقه وحفظ إنسانيّته وكفِّ الأذى عنه ما دام لا يتحرّك بالظلم والعدوان، قال تعالى: ﴿**لَّا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[الممتحنة: ٨].

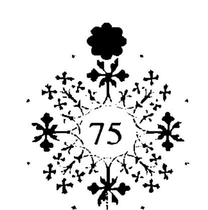
وأخال أنّ أهمّ قيمة يجدر بنا التبشير بها والدعوة إليها بعد تأصيلها وتنظيمها هي (حقّ الاختلاف) بين بني البشر، لأنّ التكفير ينبت وينمو في أجواء القمع والاستبداد، ويتحرّك في ظلّ أحادية الرأي والفهم التي يُراد فرضها على الآخرين، ومصادرة حقّهم في الاختلاف.

فمبدأ (إنْ لَمْ تكُنْ معي فأنتَ ضدّي) مبدأ خطير يخرب روح الوئام والتحابّ، والله تعالى يقول: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[الأنفال: ٤٦].

نعم لا بأس بل جميل جداً أن يتحرّك الإنسان وفق

قانون التدافع والتنافس لديمومة الحياة الاجتماعية والإنسانية كما يؤكّد علماء الاجتماع، وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾[الزخرف: ٣٢].

ثم أخيراً لماذا (نرى القشّة في عيون الناس ولا نرى الجذع في أعيننا)، لماذا لا نحدّق بإيجابيّات مَن نحاورهم؟، لماذا لا نُحسن الظنّ بالآخرين كما أرشدتنا النصوص على ذلك؟ لماذا لا نتفاءل بعطاءاتهم وما عندهم التي قد تكون خفيّة أو أنّنا لم نلتفت إليها أصلاً؟ ألم نقرأ أنّ المسيح عليه السلام مرّ ذات يوم مع حواريّيه وأنصاره على جيفة كلب فقال الحواريّون: ما أنتن ريح هذا الكلب؟ فقال عيسى عليه السلام: «**ما أشدّ بياض أسنانه**»!



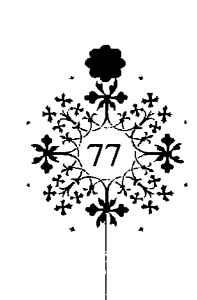
***



الخاتمة

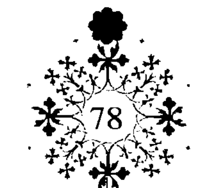
عُصارة ما ذكرناه في بحثنا هذا لتكون خلاصة ما أردناه، أنّ علينا أن نتعايش مع فكرة السلم ونشر ثقافتها، لأنّ ثقافة السلم تُثير في الناس فطرتهم النقيّة، ووجدانهم الإنسانيّ، وتبعث عقولهم على التفكير بموضوعيّة وعمق في خدمة واقعهم ومستقبلهم الاجتماعي والوطني.

وكمسلمين، فإنّ تراثنا وتعاليم ديننا الحنيف، فيها ثروة عظيمة، وزخم هائل من التوجيهات والإرشادات، فقط على المرء أن يطالع ويقرأ ليكون عالماً أو متعلّماً، فبالعلم تنجلي غيوم الشُّبهات والتشكيكات، وبالعلم ينمو فكر الإنسان نحو الصلاح والإصلاح، وإلا بدون العلم لن تزدهر الأمم، وبدون المعرفة لن نبلغ درجات الرقيّ والاعتدال في الفكر، فالناس كما وصفهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «**أعداء ما جهلوا**». العلم هذا هو الذي يُحدث الاستقرار والسلم الاجتماعي، وتتّجه من خلاله الشعوب لبناء أوطانها وصنع



تقدّمها، فلو درسنا تجربة أيِّ مجتمع مستقرّ منسجم متحاب في داخله بلا عنف ولا تكفير ولا عدوانية ولا اقتتال وصراع داخليّ، لوجدنا أنّ هذه الشعوب المستقرّة قد حقّقت استقرارها وازدهارها بمقوّمات السّلم واللاعنف، ولنتأمّل مثالاً حيّاً على ما نقول التجربة (السنغافورية)، والتي تحدّث عنها الشيخ حسن الصفّار في كتابه القيّم (السلم الاجتماعي: مقوّماته وحمايته) بإحصائيات رياضية دقيقة، حيث إنّ دولة سنغافورة متعدّدة الأعراق، تتكوّن من أربع مجموعات عرقيّة: صينيّين ٧٥٪، ماليزيّين ١٥٪، هنود وباكستانيّين ٧٪، أوروبيّين ٢٪. كما تتعدّد فيها الديانات إلى ستّ ديانات هي: البوذية والطاوية والكونفوشية ٥٤٪، الإسلام ١٨٪، المسيحية ١٣٪، الهندوسية ٤٪. وتتعدّد فيها أيضاً الأحزاب السياسية حيث تصل إلى عشرين حزباً مسجّلاً رسمياً.

ومع هذه التعدّدية، تعيش سنغافورة استقراراً داخلياً، ووئاماً وانسجاماً بين هذه الأعراق والديانات، ونتاج ذلك وصل الازدهار في واقعهم الاقتصادي إلى أن وصل دخل الفرد من إجمالي الناتج الوطني إلى أكثر من ١٧٥٩٨ دولاراً، وهو من أعلى المعدّلات في آسيا.

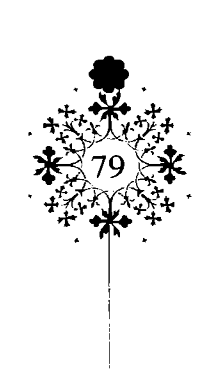


إنّ تعددية الأعراق واللغات والديانات والأحزاب، لم تتسبّب في حدوث اضطرابات ولا نزاعات، ولم تُعرقل نموّ البلد وتقدّمه، بل على العكس من ذلك، كانت مصدر

إثراء ومبعثَ اعتزاز الحكومة والشعب على السواء.

ومن الناحية الدينية وهنا محل الشاهد، الفرصة متاحة للتعبير الحرّ عن المعتقدات والعبادات للديانات الست. وقد حظي الإسلام عندهم بمجلس خاص مفوَّض بقانون برلماني هو المجلس الإسلامي السنغافوري، فهناك حوالي ثمانين مسجداً في مختلف أنحاء سنغافورة. وللمسيحيين كنائسهم، ولسائر الديانات معابدها ومؤسّساتها، ومع ذلك لم نلحظ تفجيرات ولا قتل ولا عنف ولا تكفير بين الملل، بل كلّ ما هو موجود شعور بالانتماء، وتلاحم فيما بينهم، وقد صُدِّرت عندهم قوانين صارمة لمنع ونبذ العنف والتكفير بشتّى صوره.

إذاً، الاستقرار هو نتاج الاحترام المتبادل مع اختلاف الديانات والمذاهب وحتى اللغات، ووفق أيدلوجية الاحترام المتبادل ينشأ مجتمع متحضر بعيداً عن مهاترات القذف والتسقيط والتكفير. ومن الضروري بمكان أن نُشير إلى أنّ التعدّدية بكلِّ مستوياتها هي حقيقة ثابتة في كلِّ الوجود الإنساني، ومن حقّ أي إنسان أن يعتزّ برؤيته ومدرسته الآيديولوجية والفكرية بلا نزاع أو خلاف، ولكن ليس من حقّه استخدام وسائل قسرية تعنيفية لتعميم رؤيته أو نظريته أو مقولاته على بقية أبناء المجتمع.



ويبقى الحوار دليل الذهنية المنفتحة ولكن بعيداً عن الجدال، فالأخير لا يتعدّى العمل على إثبات تفوّق الذات على الآخر، بينما الحوار يتّجه إلى تفكيك واقع سيّىء وضاغط على الجميع، فالحوار هو الاستماع الواعي والحقيقي للأقوال والآراء والأفكار، وعقد العزم على اتّباع الأحسن، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[الزمر: ١٨].

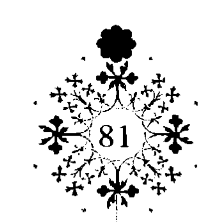
ومن الضروري أيضاً تطوير سياسات الاعتراف بالآخر المختلف والمغاير، فلا يمكن في أيّ مجتمع أن تتعزّز قيمة الحوار، بدون تطوير سياسات ومناهج الاعتراف بالآخر وجوداً ورأياً وحقوقاً.

ولا ننسى أهمية بناء علاقات إيجابيّة بين أهل المذاهب الإسلامية وغيرها بحيث تكون قائمة على الاحترام المتبادل والمعرفة العميقة، وكسر حاجز الجهل بالآخر، كما أشار إلى هذا المعنى الأستاذ محمد محفوظ في كتابه (ضدّ الكراهية). فالجهل بالآخر أو تصوّر الآخر عن بُعد وبعيداً عن وسائل المعرفة الحقيقية والسليمة، هو أحد العوامل الرئيسية لظاهرة التعصّب والتشدّد والكراهية في الفضاء الاجتماعي.

ومسك الختام أقول إنّ الذي دفع القوم لقتال الحسين صلوات الله وسلامه عليه هو الحقد والكراهية في نفوس المرضى حينما خاطبوا سيّد الشهداء مبرّرين خروجهم عليه بقولهم: «إنّما خرجنا لقتالك بغضاً لأبيك»، فالبغض والقلوب السوداء التي تربّع على عرشها الشيطان فباض وفرّخ فيها كانت هي السبب في واقعة كربلاء الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

اللهمّ طهّر قلوبنا من الحقد والبغضاء واجعلها نقيّة بنورك، واجعلنا من الرافضين للعنف والكراهية، واستعملنا بما ترضيه من قولك حينما قلت تباركت وتعاليت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧].

***





محتويات الكتاب

